روايات الهلال

البحر أمامها

محمد جبريل



روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصدر عن مؤسسة دارالهلال



الغلاف و رسومات داخلية:
علي سوقي

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٧٣٠
أكتوبر ٢٠٠٩م
شوال ١٤٣٠هـ
تشرين أول ١٧٢٦ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١.٢ دينار قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ١٠ درهما - فلسطين ٥.٢ دولار سويسرا ٤ فرنكات السودان ٢.٥ جنيه

البريد الإلكتروني
darhilal @ idsc.gov.eg

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢عددا) ٦٠جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقي دول العالم ٦٠ دولارا. القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دارالهلال.

Email: subscription_dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469

البحر أمامها

محمد جبريل

إسم الرواية : **البحر أمامها**

تاليف :**محمد جبريل**

إشراف : **محمود قاسم**

الخطوط : **محمد العيسوى**

رقم الإيداع :١٧٨٣٥ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى I . S . B . N: 977-07-1374-0

إلـى جـدتى أنيسـة حــبيب

التى تهب ـ رغـم الغياب ـ

ثمارهـا ، كشجـرة طيبـــة ـ

سألتنى أن أذكر لك الغريب ومحنته ،

وأصف لك الغربة وعجائبها .

وقد قيل :

الغريب من جفاه الحبيب

وأنا أقول :

بل الغريب من صار غريباً فى وطنه ،

وأبعد البعداء من كان غريباً فى محل قربه .

«أبوحيان التوحيدى»

لما دفعت ضلفتى النافذة ، لامست وجهها نسمة باردة ، امتصها الحـر والرطوبة . نظرت إلى نصف الدائرة أمـامـهـا ، مـا بين بنايات السلسلة وقلعة قايتباى . الموج حصيرة ، أضافت إلى سكونه قوارب متناثرة ، لا تتحرك ، كأنها مغروسة فى المياه . صيادو السنارة تناثروا فوق المكعبات الأسمنتية الهائلة ، ينتظرون جذبة سناراتهم فى الماء ، ورجل يكنس الرصيف المقابل بمقشة مجدولة من ليف النخيل ، وثمة شاب وفتاة ، جلسا على المقعد الرخامى ، تعلوه المظلة الخشبية ، فى مواجهة البحر (المقعد نفسه الذى كانت تجلس هى ومحرم إليه) لف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر ، واتجها بنظراتهما إلى الأفق .

هذا هو نهارها الأول فى الشقة . سبقته الليلة الأولى . شغلتها بترتيب ملابسها فى الدولاب ، وبإعادة تنظيم الأشياء بما يسهل عليها حرية الحركة والتصرف .

كان باسم آخر من غادروا الشقة .

أهملت الدموع فى عينيه ، وارتباكه . مد يده لمصافحتها ، فاجتذبته ، عانقته حتى أحست بأنفاسه فى بشرتها .

قال فى لهجة اعتذارية :

- ماما رحبت بإقامتك معنا .. لكنك ترفضين !

قال رامى :

- شقق هذه الأيام عشش ضيقة ..

وشرد فى الصمت كأنه يتدبر ما ينوى قوله :

ـ أنعى من الآن همَّ المكان الذى سنخصصه للمولود القادم .

أدركت أنه يلمح باستحالة أن تظل فى بيت ابنتها .

فوتت الملاحظة :

– هل اقتنعت هناء بمؤاخاة باسم ؟!

قالت هناء فى نبرة هامسة :

– رامى يتكلم عن أمنيته !

لم تكد تطمئن إلى الحياة فى بيت هناء ، حتى حدث الصدام الذى لم تتوقعه . ألفت الأماكن والأشياء والأوقات ، والاكتفاء بالإنصات الصامت لاختلاط الآراء والملاحظات والنداءات . تحولت حياتها . فى الشقة الصغيرة .

إلى ما يشبه الصورة الثابتة :

الباب الخارجى ، الصالة ، الحجرتين المتجاورتين ، إحداهما لهناء ورامى، والثانية لباسم ولها ، صور الفنانين ولاعبى الكرة على جدران حجرة باسم ، نجفة الصالة المطفأة اللمبات ، نافذة المطبخ المطلة على المنور ، تكوينات النشع فى جدران الحمام، البلاطة المكسورة أسفل الطرقة ، حتى نسيج العنكبوت فى زاوية سقف المطبخ .

ترددت فى قبول عرض هناء أن تنتقل إلى بيتها . لم تتصور ابتعادها عن الشقة المطلة على البحر ، شرفتها ، نوافذها ، الصالة ، الحجرات الأربع .

قالت هناء :

– ستقيمين فى بيت ابنتك .

استطردت مهونة :

– أيام قليلة وتعودين .

حين سبقتها فاطمة إلى دخول الشقة ، ناوشها شعور هو أقرب إلى الغربة ، كأنه قد مضى سنوات على غيابها . تعودت على شقة هناء ،

لكن الشعور الذى ظل يتملكها أنها ضيفة ، ستعود - ذات يوم - إلى شقتها .

تأملت الصالة ، والحجرات ، وقطع الأثاث ، والموضع الذى كان يتطلع منه إلى أفق البحر .

اعتادت سفره فى مهمات خارج الإسكندرية ، يغيب أياماً ويعود . هذه المرة ، يؤلمها الشعور بالفقد . لن تهيئ نفسها - كما فى المرات السابقة - لانتظاره ، تشبع اطمئنانها بالمكالمات التليفونية ، تسأل عن مواعيد الطائرة، تعد الوجبات التى يحبها ، يصحبها رامى ، إلى مطار القاهرة ، أو مطار النزهة ..

رحيله هذه المرة بلا عودة ، هى لن تراه ثانية .

طلبت من جودة البواب أن يظل شراؤه للصحف كما هو قبل أن يغيب محرم ، تطيل قراءة الحوادث والتحقيقات والمواد التى كان يكتفى بتصفحها.

تردد على الشقة قارئ جامع على تمراز ، يتلو فى زوايا البيت - لطرد الشر - آيات من القرآن ، وأدعية .

أمضت اليوم فى وصل ما انقطع ، واستعادة الألفة .

قالت فى التليفون للصوت المنفعل :

- الشقة التى شهدت حياتنا هى وطننا !

قال باسم :

- أخشى أن تشعرى بالضيق أو الملل ..

- عندى التليفزيون والراديو .. والكلام فى التليفون نصف المشاهدة ..

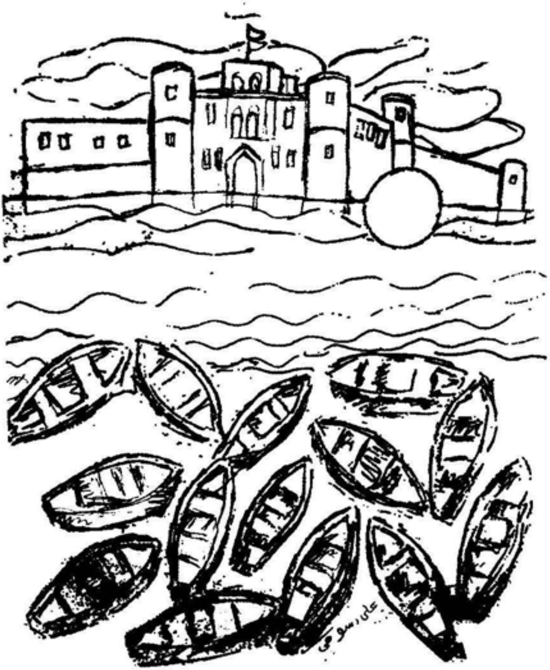
وهزت قبضتها فى تأكيد :

- سيكون خيراً !

نفضت الشقة ، تنظر إلى ما فيها بعينين غير ما كانت تنظر بهما .

تكثفت فى داخلها مشاعر القلق والتوتر الصامت .

أدركت أن حياتها لن تعود إلى ما كانت عليه .


علي دسوقي

بعد أن أغلقت الباب خلف رامى ، اتجهت إلى هناء بنظرة متسائلة :

– ألم تجدى فى الإسكندرية أفضل منه ؟

– ما يعيبه ؟.. وظيفته محترمة ، ومستقبله مضمون .

حين عرضت هناء على أبيها أن يلتقى رامى ، أومأ برأسه موافقاً .

كان قد تحول . بحكايات هناء . إلى فرد من الأسرة : باح لى رامى بسر خطير .. كتب رامى مذكرة مهمة .. رامى يذاكر الإنجليزية .. رامى بدأ مشروعاً لحسابه .. رامى حزين لضياع صفقة كانت فى يده ..

بدت زيارته متوقعة ، ربما لمجرد الزيارة .

حين التقته نجاة للمرة الأولى ، شعرت بالنفور تجاهه .

قالت :

ـ يضايقنى الشاب الذى لا يمل الكلام عن نفسه !

ظل فى نفسها ما زرعته هناء من توجس . كلماتها المعجبة بما سمته شطارة رامى ، عمليات لا تفهمها ، وإن بدت غامضة ، وغير مفهومة . فتشت فى ملامحه أو تصرفاته عن شىء لا تحبه .

عابت على محرم أنه لم يكلف نفسه عناء السؤال عن رامى : ما عمله فى داخل الدائرة الجمركية ؟ هل يعمل فى الحكومة ، أو فى شركة أهلية ، أو أنه يغامر لحسابه الشخصى ؟

وافق محرم دون أن يسأل ، أو يناقش . قال : مبروك ، وهو يعيد بطاقة رامى ـ مقلوبة ـ إليه .

لم يجد فى طبيعة علاقة هناء ورامى ما يدعو إلى السؤال أو التشكك - لم يناقش هناء حتى فى تنازلها الغريب عن كل ما كانت أعدت له نفسها من استكمال دراساتها العليا . ظلت صامتة ، ومبتسمة ، لقول رامى :

- هناء حصلت على بكالوريوس التجارة ، وهو يكفى لإدارة بيت !

قالت لهناء :

- رامى لا يريد زوجة ، إنما يريد جارية ..

أردفت لاتساع عينيها بالغضب :

- إنه يحب التملك ، بزواجكما ضمك إلى ممتلكاته .

استطردت موضحة :

- ساعده استعدادك للخضوع .

- هذا رأيك .

- القبول بالتنازل بداية لا نهاية لها ..

تمنت لو أن هناء عرفته على حقيقته ، لكنها بدت كالمنساقة ، هو الذى يطلب ويأمر ، ويفرض سيطرته .

ما أضاف إلى استيائها أن طباع رامى كانت واضحة ، من قبل أن يتقدم لخطبة هناء . ينهرها لأقل سبب ، ويشتمها بلا سبب . تنقل عنه ما يضايقها من كلماته وتصرفاته ، لكنها لا تحاول التطلع إلى ما وراء الأفق .

احتدم الانفعال فى عينيها بنظرة غاضبة :

- أنت تكرهينه !

جمدت نجاة فى مكانها :

- أنا أحبك ..

- إذن ، لا تثيرى المشكلات فى حياتى .

ورمقتها بنظرة رافضة :

- هل أطلب الطلاق كى أريحك ؟!

حين قدمت إلى الإسكندرية من دمنهور للمرة الأولى ، لم تكن عيناها قد شاهدتا البحر . جلسا على كرسى مواجه لأفق المينا الشرقية .

الوقت ليل . الجو يعبق برائحة خريفية . الظلمة غيبت أفق البحر ، لا نهاية ، لا مرئيات . القمر يريق ضوءه الشاحب على المكعبات الإسمنتية ، وعلى الموج الساكن إلا من مد يلامس ـ بالكاد ـ رمال الشاطئ ، وخطوات عسكرى السواحل بطيئة ، متثاقلة ، ونظراته شاردة ، وبندقيته معلقة على كتفه .

يترامى وشيش الموج فى تلاحق رتيب ، وثمة أضواء قليلة تنبعث من القوارب المتراقصة فى مواضعها المتناثرة فى نصف دائرة المينا الشرقية .

أعمدة الإنارة تريق ضوءًا خافتاً على الطريق ، الناس أشباح التفوا فى أردية داكنة . تبين الظلمة الشاحبة عن اللسان الطويل الممتد من أقصى اليمين إلى مدخل البوغاز . من بعد ، تترامى الألعاب النارية والصواريخ وأصوات المفرقعات فى تيرو السلسلة . من الخلف ، الدرجات العريضة المفضية إلى نصب الجندى المجهول ، يحيطها ـ بالرهبة ـ تداخل الألوان والظلال ، وثمة عمال ينقلون ربطات الصحف من عربة مكشوفة إلى الطاولة الرخامية على باب قهوة الإسعاف ، وكناس ـ إلى جانب الرصيف ـ يزيح القمامة بالمقشة الهائلة .

أول ما حرص عليه ـ حين استقر فى عمله بالمكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية ـ أن يستأجر شقة تطل على البحر ، الإسكندرية هى البحر .

استأجر الشقة فى العام الأول لتشييد البناية . اجتذبه واجهتها المطلة على البحر بشرفاتها الواسعة ، ونوافذها العالية .

كان صف البنايات المقابلة للبحر قد اكتمل بعد بناء الكورنيش ، ربما عشرة أعوام ، أو خمسة عشر عاماً . قدم مئات الأسر من داخل المدينة . بدَّل الكورنيش صورة الحياة ، شكل حاجزاً أمام اندفاع الأمواج .

تمازجت فى داخلها ـ فى الليلة الأولى لعودتها إلى البيت ـ مشاعر الفقد والحزن والوحدة والعزلة . غاب الزوج ، والصديق ، والظل الذى كانت تطمئن إليه . تمنت ـ رغم فارق السن بينهما ـ أن يكون يومها قبل يومه ، لكنه خذلها ، رحل قبل أن تتدبر كيف تواجه الأيام المقبلة .

أحزنها الشعور أنها لم تعد من العالم حولها ، أو أن هناء ورامى يحرصان على إذكاء هذا الشعور فى نفسها .

أحست أنها تعانى الوحدة أكثر من أى وقت مضى .

أمضت فاطمة الليل فى بيتها ، تعيد ترتيب الأمور ، وتعود . برودة البحر القادمة من النافذة تدعو إلى إغلاقها ، لكنها تعمدت أن تدفع الضلفتين إلى نهايتهما ، يؤنسها صوت ارتطام الأمواج بمصدات الشاطئ ، وأصوات الطريق ، وأضاءت الشقة كلها .

آخر يوم له فى المنظمة ، صرف سائق السيارة . فضل أن يمضى إلى البيت على قدميه ، يسار طريق الكورنيش . علق جاكت البذلة الكتانية البيضاء بإبهامه المستند إلى كتفه ، واحتمى من حرارة الشمس بالتندات المتلاصقة فى امتداد الطريق . يحرص على ارتداء البذلة الكاملة فى كل الأوقات ، لا يفرق بين الليل والنهار ، ولا بين الشتاء والصيف ، البذلة الكاملة شرط الأناقة التى يحرص عليها .

تشاغل بالتطلع إلى الألق المتكسر ، والحرارة المتصاعدة فوق المياه بتموجات مرتعشة ، وطيران النورس فى امتداد الساحل ، واختلاط زحام المارة والسيارات .

اعتذر عن عدم إقامة حفل عيد ميلاده ، إضاءة الشموع ، وتقطيع التورتة، والتغنى بعام جديد ، سعيد . ذلك اعتراف بأنه أحيل إلى المعاش ، وهو ما لم يحدث ، سيظل فى عمله ، وإن استبدلت المنظمة براتبه مكافأة شهرية .

تردد - فى الأيام التالية - على قهوة فاروق ، على ناصية شارع محمد كريم . جالس أصدقاء قدامى ، وآخرين كان أول لقاءاتهم فى القهوة .



لفها شعور من أطفأ النور ، وتهيأ للنوم .

قالت فاطمة :

ـ فى عمرنا نحتاج إلى أدوية .. مقويات .

قالت :

ـ الأدوية قد تخفف الآلام .. لكنها لا تطيل العمر .

أضافت دون تغير فى ملامحها ، أو نبرة صوتها :

ـ للعمر نهاية تأتى فى موعدها !

عرفت من المسافة القصيرة ـ فى موازاة الكورنيش ـ من ميدان المنشية إلى البيت المطل على يسار الميناء الشرقية ، أنها كانت تستطيع التوجه من بيت هناء إلى بيتها . لم تكن تدرك قصر المسافة ، المرات القليلة التى تنقلت فيها بين البيت وأماكن فى الإسكندرية ، صحبها محرم ، حرص ألا يتركها لنفسها ، حتى فى نزولها للبيع والشراء من حلقة السمك ، وشارع الميدان القريب ، أو للتمشية على شاطئ البحر إلى قلعة قايتباى ، أو سراى رأس التين ، كان يحرص على مرافقتها .

رافقته ـ فى أوقات متباعدة ـ لزيارة المكتبات وصالات الفن والمتاحف ، والتردد على المسارح والسينما والحفلات الموسيقية .

آخر ما شاهدته تياترو السيرى ، فى الأرض الخلاء الملاصقة لمبنى المحكمة الوطنية . تتابعت الأغنيات والرقصات وألعاب الحاوى والمهرج والفتاة الكهربائية ، وإن غالبت التوتر ، حتى عزف السلام الوطنى .

لضعف بصره ـ فى الأعوام الأخيرة ـ أسقط تلك الزيارات من حياته : حياتهما .

يستعيد ما شاهده من حفلات الموسيقى والأوبرا ومعارض الفن . عوالم من السحر ، كان حريصاً أن ترافقه إليها . قد يتردد على العطارين ، يتنقل بين محال الكتب والتحف القديمة ، يكتفى ـ غالباً ـ بالتقليب والتأمل . لطول تردده على العطارين ، صار يعتز بإجادة قراءته للوحات الفنية ، وبخبرته فى اقتناء الأشياء الثمينة .

عمقت حكاياته من ميلها إلى البقاء فى البيت . تمنت لو أنها رافقته فى النزول إلى السوق ، الحياة على طبيعتها ، البيع والشراء والفصال ، لا تقيد بالشروط ، ولا المعانى التى يغلفها الشحوب .

تعلمت منه الكثير ، وعرفت ما كان ينبغى أن تعرفه . اطمأنت إلى أنه يعرف جيداً كيف تسير الأمور خارج البيت .

لما أبدت رغبة فى حضور دروس إمام جامع على تمراز ، دلها محرم على الشوارع التى لا تنحرف عنها .

تمضى فى طريق الكورنيش إلى شارع تميز ناصيته بالمقهى الكبير ، وارب أبوابه ، واكتفى الرواد بالجلوس داخله .

تميل فى الشارع ، تتباطأ أمام قهوة فاروق ، تحاول ـ من حكايات محرم ـ تبين الموضع الذى يختار الجلوس فيه . تتأمل الأبواب ، والنوافذ الزجاجية العريضة ، والكراسى المتقابلة حول الطاولات الرخامية ، والتاج الملكى يعلو الواجهة ، و" النصبة " المحملة بالغلاية ، والبرادات المعدنية ، وأكواب الماء والشاى ، والكنكات ، وفناجين القهوة ، والطقاطيق الصغيرة ذات الأرجل الثلاثة ، والرواد المتناثرين ، والنداءات ، والمناقشات ، ودخان النارجيلات يضفى ضبابية على القاعة الواسعة .

ابتسم لملاحظتها إن كان يتعاطى الشيشة . قال إن الكلام هو صلته بجلساء القهوة ، لا يضيف إليه سوى شرب القهوة ، لا نرجيلة ، ولا ألعاب كوتشينة ، أو طاولة ، أو دومينو . يأخذ فى الكلام ويعطى ، آفاق الحوار ممتدة .

تعبر قضبان الترام وسط شارع محمد كريم ، تواصل السير حتى تصل إلى مفارق وتقاطعات .

يطالعها الجامع فى موضعه المطل على ميدان صغير ، تتفرع منه شوارع متجاورة ، ومتقابلة ، لا تعرف إلى أين تمضى .

تصعد الدرجات الرخامية إلى صحن الجامع ، تصلى فى الركن ، إلى جانب الباب المغلق ـ ركعتى تحية الجامع ، تقرئ ولى الله السلام ، وتتلو الفاتحة ، تدور حول المقام ذى الكسوة الخضراء ، والأعمدة النحاسية ، وشفتاها تتمتمان بتلاوات وأدعية .

تندس فى نصف حلقة النسوة حول الإمام ، تستمع إلى دروسه ، ربما شاركت بسؤال أو ملاحظة . تعود ـ بعد انتهاء الدرس ـ من الطريق نفسها .

سألت عن الصلاة : هل يلزمها تقدم العمر بزيادة عدد الركعات ؟ هل تضيف إلى صوم الاثنين يوم الخميس ؟

قال الإمام :

ـ العبادة مستحبة فى كل الأوقات .

قبل أن تصحب هناء ورامى إلى شقتهما المطلة على شارع خلفى ، اطمأنت إلى إضاءة حجرات الشقة . حتى الأبليكات والأباجورات فى أركان الغرف ، أضاءتها ، تعرف أن روح الميت تظل فى المكان أربعين يوماً ، تكفى الجسد ظلمة القبر . حرصت أن تظل ثيابه على حالها داخل الدولاب ، رفضت حتى أن تستجيب لإلحاح هناء ، فتعطى ربطات العنق إلى رامى .

تركت متعلقاته الشخصية فى موضعها فوق الكومودينو : ساعة اليد والنظارة الطبية وشرائط الدواء والنوتة الصغيرة والقلم .

سيطر عليها شعور بأنها وحيدة فى الدنيا .

لم يعد يربطها بالعالم من حولها سوى الذكريات ، صورة محرم تملأ عينيها ، فلا ترى غيره ، تشعر - رغم فوات زمن الإضاءة - أنها تتنفس الهواء الذى كان يتنفسه ، تتشمم رائحة عرقه ، فى ملابسه المعلقة داخل الدولاب ، تستعيد ملامحه ونبرات صوته وإيماءاته وتصرفاته ، فى جلستهما الليلية - المتباعدة - على المقعد الرخامى المواجه للكورنيش ، وقفته وراء النافذة المطلة على البحر ، جلسته وهو يقرأ ، وأمام التليفزيون ، انحناءة رأسه وهو يحتسى الشاى ، إدارته مؤشر الراديو يبحث عن أخبار البى بى سى ، أو مباريات كرة القدم فى إذاعة الشباب والرياضة .

ربما أعادت تقليب ألبومات الصور ، أو قراءة رسائلها إليه من دمنهور : محرم يرتدى الروب الجامعى .. محرم يضع السلسلة الذهبية فى عنق نجاة .. محرم - فى صورة جماعية وسط موظفى مكتب منظمة الصحة العالمية .. محرم ونجاة يقفان أمام باب مسجد المرسى أبو العباس .. هناء الطفلة تبنى بيتاً من رمال البحر .. هناء ترتدى الكعب العالى بفرحة المرة الأولى .. هناء ورامى بملابس الزفاف .. باسم يدلى ساقيه من فوق كتفى محرم ، باسم يبتسم للعدسة فى وقفته على رمال البحر وبيده دلو وجاروف ، أفق البحر - خلف باسم - فى اعتلائه الكورنيش الحجرى .. حبيبتى نجاة .. احرصى على زيارة أمى .. تسلمى منها رسائلى إليك .. عزيزى محرم بك .. حبيبى محرم .. شوقى إليك بطول المسافة من دمنهور إلى الإسكندرية .. أشكرك على هديتك الغالية .. ننتظر قدومك فى إجازة المولد النبوى .. حبى أكبر من البحار والمحيطات .. يصر أبى أن يتأجل زواجنا إلى ما بعد بلوغى

السادسة عشرة .. أقسم لك بمقام سيدى أبو الريش أنى أكتب هذه الرسائل ، لا أمليها على أحد ..

علا حاجبا رامى الكثيفان بالدهشة :

– هل كان مسموحاً بالمصارحة فى زمانكم ؟!

قالت :

– رسائل بنت فى الخامسة عشرة من عمرها .

وتهدج صوتها بالارتباك :

– لكى أبلغ سن الزواج ، قام الطبيب بتسنينى !

انتفضت متنبهة ، اتسعت عيناها بالذعر :

– هذه الرسائل ؟

فى لهجة مدافعة :

– يبدو أنك نسيتها على المكتب .

– كانت داخل صندوق .

لما أخذت الرسائل من الدرج الأيسر العلوى فى مكتب محرم ، اطمأنت إلى موضعها داخل الصندوق الخشبى ، المطعم بالصدف . استبدلتها بما كان فى داخل الصندوق من الحلى . فى اليوم الثالث لعقد قرانهما ، عاد إلى الإسكندرية . لم تنقطع رسائلها إليه ، ولا رسائله إليها . تكلمه فى تفصيلات حياتها اليومية ، ويكلمها عن أحوال الوظيفة . ربما استعادا ما كان ، وناقشا تصورات .

أظهر رامى التأسف :

– لم أعرف أن قراءتها تضايقك .

اهتز جسدها بالانفعال :

ـ ما فعلته سخف ، النبش فى ما لا يخصك سخف !

أعادت ـ بعينى رامى ـ قراءة الرسائل المودعة فى الصندوق الخشبى الصغير . هل عرف ما لم يكن ينبغى أن يعرفه ؟

أطالت تأمل كلمات محرم : " يؤلمنى تذكير أبيك لى بفارق السن بينى وبينك " .. " العينان الساحرتان بوصلة طريقى إلى حارة الزرقا . أخترق الشوارع فى الإسكندرية ودمنهور ، تجتذبنى البوصلة التى كأنها ثبتت فى داخلى ، لا يشغلنى فارق السن بقدر ما يشغلنى السؤال : هل تبادليننى مشاعرى ؟ ".. "حين أعلنت أمى رغبتها فى عدم ترك بيتنا بحارة الزرقا ، لم أكلمها عن الرغبة نفسها فى داخلى . بدت أسرتك مطمئنة إلى العيش فى بيت العائلة . كنت حريصاً أن أظل بالقرب منك " .

شاهدت الإسكندرية فى أوقات رفقتها لمحرم ، قارنت بين ما شاهدته ، وما رسمه خيالها مما كان أبوها يرويه عقب زياراته إلى المدينة .

لم يكن يشغلها التقدم فى العمر ، ولا النهاية التى ستلتقى بها فى لحظة ما . راعها الإحساس الذى سيطر على محرم ـ فى أيامه الأخيرة ـ بدنو حياته من نهايتها ، وأن الموت يقف على الباب ، أو أنه يلاحقه كظله . استقر فى داخلها ما يشبه اليقين أنه سيعيش عمراً أطول من عمرها . كانت زياراته للأطباء متباعدة . ولم يكن فى تصرفاته ولا حالته الصحية ما يشى بالقلق .

نضح صوته بالأسى :

– أنا مستشار فى منظمة الصحة العالمية ، لكننى أحتاج إلى من أستشيره فى صحتى .

واغتصب ابتسامة :

ـ عندما أذهب لا تتأخرى فى اللحاق بى .

وأغمض عينيه :

. سأفتقدك !

وضعت أصابعها على شفتيه :

- لا تتكلم عن الفقد ، ستظل حيا حتى تزوج أبناء باسم !

راودتها رغبة فى أن تمسد شعره ، أو تربت كتفه ، أو تحيطه بساعديها، تتصرف بما يشعره أنها تحبه .

الوجه قمحى مستطيل . العينان ساجيتان ، مطمئنتان ، وإن لاحظت تراخى جفنيه ، وتضخم أنفه . الشفتان دقيقتان ، رقيقتان ، يميزه بروز خفيف فى أسنانه .

مال جسده - بتقدم السن - إلى الامتلاء والترهل ، وحركته إلى البطء ، ومال طبعه إلى الهدوء . لا يشارك فى مناقشات هناء ورامى ، إذا تكلم اكتفى بكلمات مقتضبة .

يرتدى - فى الشتاء - بيجامة من الصوف ، فوقها روب ، ويضع على رأسه طاقية من القماش نفسه . يكتفى - فى الصيف - بجلباب قصير الكمين. إفطاره الدائم شرائح الخبز والجبن والقهوة وعصير البرتقال .

ربما أسند ظهره إلى كرسى ، واستغرق فى قراءة كتاب على ضوء الأباجورة ، وثمة موسيقى هادئة تتناهى من موضع قريب . يحرص على سماع الموسيقى الغربية ، وإن أحب أم كلثوم وعبد الوهاب والأطرش وليلى مراد ومحمد فوزى وعبد الحليم وشهرزاد ، والألحان الشرقية والشعبية (يجد فى سيد درويش أهم الموسيقيين الجدد) والمواويل والتواشيح والابتهالات .

اطمأنت إلى تنقله المتباطئ بين الحجرات ، ونظراته المتلفتة . يبدو مشغولاً بما لا تعرفه .

فاجأها بالقول :

- كيف يحدث الموت ؟

وهى تغالب التوتر :

- لم أتعرف إليه ، وإن تصورت أنه نفس يدخل ولا يخرج . هذا كل شيء!

همس كأنه يسأل نفسه :

- المشكلة أن الإنسان يموت وحده .. لا أحد يشاركه موته !

ورنا إليها بنظرة حزينة :

- هل ينتهى كل شيء بالفعل ؟

- هذا ما أظنه ، مجرد نوم بلا صحو .

أضافت فى صوت مشروخ :

- الميت لا يخشى شيئاً ، لأنه ميت !

وشوحت بيدها :

- لم أعد أخاف الموت .. اعتدت صداقته .

- مهما صادق الإنسان فكرة الموت ، لا يستطيع تصور أنه سيموت !

وغلب على نظراته شرود :

- مع ذلك ، فإن الموت حل للكثير من المشكلات !

أرهقتها فكرة أن يترك محرم البيت . تظل وحدها ، تعانى العزلة ، والمخاوف ، والموت . لا تتصور أنهما يفترقان ، فلا تراه ، تحيا ما بقى من العمر - وحيدة - بين جدران الشقة .

لاحظت فى نفسها ميلاً إلى كتم آرائها ، وتردداً بين اتخاذ القرار وتنفيذه ، كمن تنتظر نصيحة محرم ، وما يجب عليها فعله . فطنت إلى أنها تفتقد القدرة على التصرف فى المشكلات التى تواجهها ، وأنها لا تملك أن تصل إلى رأى تدافع عنه ، لا تملك شجاعة اتخاذ القرار ، تسأل ، وتناقش الملاحظات ، يطول تقليبها لها ، تتردد فى اتخاذ قرار ما ، حتى تنسى ما كان يشغلها .

لى بدت المشكلات قريبة ، تتوقعها فى كل وقت .

. تلاحظ ما يعانيه ، ما يكتمه فى نفسه ، ولا يبوح به ، يغمض عينيه ، ويلص ملامحه ، ويضغط على شفتيه بأسنانه . تعرف أنه يعانى مرضاً ، وإن حاول إخفاء آلامه ، يتكلم عن النتيجة دون أن يشير إلى بواعثها .

- ما بك ؟

- لا شيء !

ويظل صامتاً .

عرفت - بعد رحيله - أنه كان يحمل سر الموت فى داخله . لم يحاول أن يشرك الطبيب فى التعرف إليه . هو الموت ، وما يسرى فى داخله نذره . عليه أن يتحمل ، ويظل صامتاً . لم يحاول حتى أن يبدّل شيئاً فى مألوف حياته . قرأ - لا يذكر أين - أن الطبيب قد يخفف الألم عن المريض ، لكنه لا يقوى على دفع الموت .

عرفت أنه لم يكن يشغله إلا التوقع ، لا يرتبط بالوظيفة ، ولا السياسة ، ولا الحياة خارج البيت ، ولا حتى مباريات كرة القدم التى يحبها ، رحيله ، ومواجهتها ما لم يعدها لتوقعه .

تتشاغل بتأمل الصالة الواسعة ، تتوسطها - أمام المدخل - مائدة الطعام غطيت بمفرش من الحرير الملون ، وتوسطتها زهرية تدلت منها وردة ظلت فى موضعها حتى ذبلت ، تتقابل حولها ستة كراسى من الخشب المطعم بالصدف . الجدار الأيسر الواصل بين باب الشقة والطرقة المفضية إليها ملأه منظر طبيعى باتساع المساحة ، لقرص الشمس الأحمر يغطس فى أفق البحر ، إذا أهملت إغلاق باب الشقة ، صفقه الهواء القادم - عبر النافذة - من البحر . المطبخ والحمام فى الناحية اليسرى ، إلى جانبهما نافذة

صغيرة تطل على المنور ، وسط البناية . البوفيه الضخم بين الصالة وحجرة المكتب - إلى اليمين - يتوسطه تمثال - اقتناه محرم من تونس - لرجل عار ، إلا من فوطة تغطى ما تحت السرة ، جلس على مقعد الحمام الشعبى ، إلى الجانب جهاز تليفزيون ، تعلوه - على الجدار - صورة فوتوغرافية لوالد محرم ، يرتدى بالطو قصيراً ، فوق قفطان ينسدل إلى القدمين ، ويرتدى حذاء أجلسيه . تدلت من السقف العالى شكمجية من المعدن الأصفر المنقوش بزخارف نباتية . افترشت الأرض سجادة فارسية ، تناثرت فى الأركان مناضد خشبية صغيرة ، فوقها قازات خزفية ، بداخلها ورود جافة . حجرة النوم قبالة حجرة المكتب ، تلاصقها حجرة هناء . وحجرة القعاد الصغيرة - تحولت إلى ما يشبه الكرار - لها نافذة صغيرة يهبها الهواء والضوء ، مساحة فراغ صغيرة بين البيت والبيت المجاور .

كان يجلس إلى مائدة الطعام ، أمامه ملفات وأوراق ، يخلو - معظم وقته فى البيت - لمراجعة أوراق العمل ، أو لقراءة الصحف والكتب ، يجرى - بالقلم الرصاص - تحت الكلمات التى تستوقفه .

يفضل الكتابة والقراءة على المائدة ، والتطلع - من موضعه - إلى أفق البحر . اكتفى فى حجرة المكتب برص الكتب على الأرفف ، وفوق المكتب ذى الطراز العتيق ، لا يتردد عليها إلا ليودع ملفات أو كتباً ، ويأخذ أخرى .

تكتفى بمراقبته .

قد يعيد رواية حادثة ، أو خبر سياسى ، أو فقرة من تعليق ، أو يلخص كتاباً أعجبه . يكلمها عن أشياء لم تعرفها من قبل ، فى التاريخ والسياسة والبلاد وكرة القدم ، يعلق على قراءاته ، ومشاهداته ، وما يستمع إليه .

يشاركها أفكاره . ربما ذكر إحصاءات مما تتناوله منظمة الصحة العالمية في تقاريرها ، تهز رأسها دلالة المتابعة ، أو تسأل ، أو تستوضح ما غمض عنها .

تبدى تأثرها لكثرة الأمراض ، وارتفاع أرقام الإحصاءات والبيانات ، وتفشى الأوبئة فى البلدان الفقيرة .

تتناثر فى كلماته مفردات : السجائر ، الصرف الصحى ، المياه الملوثة ، المخدرات ، العادم ، النفايات ، مخلفات المصانع ، المبيدات الحشرية ، الأمراض المتوطنة . تأتى المفردات فى سياق أحاديثه ، تحدد ما يشغله .

أشد ما يعتز به ، أنه ـ أول إقامته فى البيت ـ دفع مكتب منظمة الصحة العالمية إلى طلب تحويل مواسير المجارى ، فلا تقذف ما بها فى المينا الشرقية .

قال فى لهجة معتذرة :

ـ كنت سأفعل الشيء نفسه لو لم أسكن أمام البحر !

ربما انشغل بالقراءة ، وكتابة التقارير ، بينما انكبت هى على أشغال الإبرة . أجادا ـ لطول العشرة ـ أن يتصل كل منهما بالآخر دون كلمات . تتخلل الجلسة الصامتة ملاحظات سريعة ، يعود كل منهما ـ بعدها ـ إلى ما بين يديه .

إن عانت أرقاً ، أشار عليها بسحب كتاب ـ يذكر عنوانه ـ من أرفف مكتبته :

ـ ستجدين فيه ما يستحق القراءة .

اختلط فى مشاعرها الخوف والقلق والإشفاق والتعاطف و المشاركة ، وهو يعانى زحام الوقت فى انشغاله بتفشى وباء الحمى القلاعية .

بدا مهموماً بما لم تعهده من قبل ، يقضى معظم النهار فى المكتب ، يطيل الاتصالات التليفونية بمدن داخل مصر وخارجها ، يسجل الملاحظات ، يكتب المذكرات والتقارير ، يحدثها ـ بعبارات مقتضبة ـ عن خطورة المرض ، وعن الآثار التى يمكن أن يحدثها لو لم يتم تداركه .

عاد إلى جلسته المتجهة ناحية الأفق .

عرفت أن ما كان يشغله لم يعد كذلك .

قالت :

– هل انتهى الأمر ؟

قال :

– ما جرى فصل من الصراع بين مربى الماشية ومربى الدواجن .

ثم وهو ينقر بالقلم على زجاج المائدة :

– انتصر مربو الدواجن هذه المرة ، لكن التنبؤ صعب بمن يفوز فى الجولة القادمة !

ارتفع حاجباها بالاستغراب :

ـ هل كان المرض ..

قاطعها :

– هناك مرض .. لكنه لم يبلغ حد الوباء . تكفلت الشائعات بتضخيم الأمور ..

بَعُد زمن تردده الدائم على المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية بمحطة الرمل . وظيفة المستشار الإدارى قصرت علاقته على الأوراق ، يراجعها ، ويبدى الرأى ، يصحو وينام بلا موعد . يرافق شرب القهوة بقراءة الصحف . تتابع تنقل عينيه بين عناوين الصفحة الأولى

والصفحات الداخلية ، يتوقف أمام صفحة الوفيات ، يطيل وقت القراءة بحل الكلمات المتقاطعة ، ما يصله من الفرع يراجعه ، ويؤشر ، ويبدى الملاحظات ، حتى يزهق ، أو يدركه التعب . قد يستعيد مشواره الأسبوعى ، القديم ، إلى دمنهور .

يخرج من مكتب المنظمة بعد الظهر ، يخترق ميدان محطة الرمل إلى شارع صفية زغلول ، يتناول طعاماً خفيفاً فى إيليت ، ثم يمضى إلى محطة السكة الحديد . يهبط فى محطة دمنهور قبل أن يحل المساء.

لا يذكر متى فطن إلى وجودها فى حياته ، اللحظة التى استعاد فيها النظرة إلى وقفتها وراء النافذة : الجسد الفائر ، البشرة البيضاء ، العينين اللوزيتين ، الواسعتين ، هالة الشعر الأسود ، الناعم ، حول وجهها .

تكررت لقاءاتهما ـ بالأعين ـ من خلف النافذتين .

لم يخف أبوها غضبه :

ـ هل أخرجها ـ وأنا المفتش بوزارة المعارف العمومية ـ من المدرسة لتتزوج ؟ هل أزوجها من رجل فى عمرى ؟!.

خشى أن يكون فارق السن حافة ، تبتلعه هاويتها إن حاول القفز فيها ، لا يكون مجرد عقبة ، يحاول تخطيها .

روى عن تحريضه لأمه ، كى تعبر الحارة إلى البيت المقابل . تجالس أم نجاة ، تخوضان فى أحاديث لا آفاق لها ، وإن أومأت أمه بكلمات محسوبة إلى خطوة يترقبها .

كاد ـ فى لحظة ـ أن يرجئ الفكرة ، يتريث فى أمر زواجه من أية فتاة ، وليست نجاة وحدها .

قالت :

– نسيت بحملى فى هناء شرط أبى أن أواصل الدراسة .

يعبر ميدان المحطة إلى شارع الصاغة . يخلف وراءه قهوة المسيرى وجامع الزواوى والشوارع المتقاطعة والمتوازية .

خطواته أقرب إلى الهرولة ، كأن قدميه تعرفان طريقهما . يجتذبه إلى نجاة جمال طبيعى ، بلا صنعة . يترك فول العاصى عن يمينه ، إلى داخل حارة الزرقا الترابية الضيقة ، يرافقه الأمل فى عودة الرجل عن رفضه .

يحاذر البرك الطينية المتبقية من مياه الغسيل ، ويكتم تنفسه عن رائحة بقايا الطبيخ والسمك والبراز وروث البهائم .

البيتان المتقابلان يتشابهان فى الطوابق الثلاثة ، والنوافذ ، والباب الخشبى فوق درجتين من الإسمنت .

يرقى السلم الخالى من الدرابزين .

يلتفت ـ بتلقائية ـ إلى الحوش فى أسفل . تغيب نظراته فى الظلمة الشفيفة . يختار موضعاً بعيداً عن النافذة المواجهة ، المفتوحة ، فلا تغضب أمه إن عرفت زيارته لبيت الجيران قبل أن تراه .

تباعدت ـ بوفاة أمه ـ زياراته ، زياراتهما ، إلى دمنهور ، يحرصان على العودة إلى الإسكندرية فى نهار اليوم نفسه .

ربما تمشّى داخل الشقة بالبيجاما والشبشب ، مال إلى الانحناء ، خطواته بطيئة ، تبين عن صعوبة قدرته على السير . تكررت شكواه من أن قدميه لا تساعدانه ، ومن ضعف الذاكرة ، وكثرة النسيان ، وعدم استجابة قواه ، وانهزامه أمام التقدم فى السن . يشكو من النهجان لأقل مجهود

(الرطوبة تزيد من إحساسه بالإرهاق) ، يتملكه الضعف فلا يستطيع النهوض ، يسند ركبتيه إلى راحتى يده ، حتى يفرد طوله . قد يطيل التوقف فى مكانه ، حتى يستعيد تماسك جسده من تأثير دوخة تفاجئه . تجذبه نجاة من يده ، أو يستند إلى الجدار ، أو قطع الأثاث . يعبران طريق الكورنيش للتمشية إلى أول السلسلة ، أو - من الناحية المقابلة - إلى قلعة قايتباى وسراى رأس التين .

يجلسان على المقعد الرخامى فى مواجهة البيت . يختاران هذا المقعد من بين المقاعد الرخامية الأخرى على طول طريق الكورنيش . جلسا عليه ليلة قدومها - للمرة الأولى من دمنهور .

صار المقعد مكاناً لجلستهما الليلية - فى أوقات متباعدة - أشهر الصيف. يطيل التوقف ، تتوزع نظراته بين الاتجاهين ، حتى يطمئن إلى هدوء حركة المرور تماماً ، أو توقفها ، فيعبر .

أحبت البحر منذ رأته للمرة الأولى . اجتذبتها زرقة السماء ، المتداخلة فى أفق المياه ، وتكسرات الأمواج ، والقوارب المتناثرة ، وأسراب الطير .

تناهت آهة تألم وهى مستلقية فوق السرير . كانت تقرأ كتاباً ، سحبته - بالمصادفة - من مكتبة محرم . التليفزيون فى ركن الحجرة يبث فقرات إعلانية ، ونور الأباجورة المثبتة على حامل يختلط بضوء النهار المنسحب .

تجمدت - بالذهول - لرؤية تقلص ملامحه ، واتساع عينيه وفمه ، واصطباغ بشرته بحمرة داكنة ، ويده تحيط بعنقه كأنه يخنق نفسه .

قاومت ارتباكها وهى تنظر إلى عينيه المفتوحتين ، هل تغمضهما ؟

أدركت أنها لابد أن تفعل ذلك .

مدت أصابعها بجرأة ، لا تدرى كيف واتتها .



التقطت نظرة باسم بارتجافة يدها الممدودة بكوب الشاى :

- ملأت الكوب . أخشى أن يندلق على الأرض !

وهو يحدق فى عينيها :

- هل أنت مريضة ؟

قالت :

- لا تجعل من الحبة قبة !

افترشت وجهه بسمة إشفاق :

- نحن لا نستطيع أن نهرب من هذا العالم .. علينا أن نتعايش معه .. ما أعرفه أن حالتنا النفسية تنعكس على تصرفاتنا .. مهما تضخمت المشكلة فهناك أمل .. المشكلات التى يصعب حلها ، علينا أن نتركها للظروف .. لا مخلوقات نضمن طهارتها سوى الملائكة .. ما دمنا نحيا ، فلابد أن نواصل حياتنا .. لا شيء يظل على حاله ..

ظلت تصغى لتعبيراته السريعة ، المتلاحقة ، المفعمة بالتشبيهات والكنايات ، المعانى التى لم تخطر فى بالها ، ما لم تتصور أنه يجيد حفظها، أو تسعفه البديهة بتلاحقها .

قلبت الكلمات فى رأسها ، تأملتها . هو باسم آخر تتعرف إليه - ربما - للمرة الأولى ، يختلف عن باسم الذى كانت تروى له الحواديت ، يطالبها أن تظل إلى جانبه حتى ينام .

شعرت أنه قريب منها ، كما لم يحدث من قبل .

تميز عن أبويه بأسنانه المفلوجة ، وإن ورث عن أمه عينيها العسليتين الواسعتين ، وشعرها الأسود الغزير ، وشفتيها المكتنزتين ، وورث عن أبيه أنفه الضخم ، وقامته الطويلة ، وكتفيه العريضتين ، وبشرته الأقرب إلى السمرة .

اكتفت بنظرة متأملة ، ثم قالت فى نبرة هادئة :

ـ أعرف هذا .

كيف لإنسان مات من كان يشاركه حياته ، أن يواصل ـ بمفرده ـ هذه الحياة ؟

كتمت تأثرها لقول رامى : أنت تخافين الإقامة فى الشقة بمفردك ، وتخافين النزول من البيت ، وتخافين التعامل مع الناس . حتى الشعور بالحاجة إلى شخص يرعانا هو شعور بالخوف !

لا تذكر المناسبة التى كان فيها باب الشقة مفتوحاً . وهى تهم بإغلاقه ، اصطدمت نظرتها بعينى الجار فى الشقة الملاصقة .

ارتبكت لإيماءته المحيية ، هل تردها إليه ؟

حدثها محرم عن جلساتهما إلى طاولة واحدة فى قهوة فاروق ، جوار الباب المطل على شارع محمد كريم .

قل نزول محرم بعد المعاش ، ثم لزم البيت .

ظلت على ارتباكها وحيرتها ، حتى أومأ الجار مستأذناً ، وأغلق الباب وراءه .

الشعور الثقيل بالوحدة ، لم يدفعها إلى الاختلاط . تملكتها الحيرة ، لا تدرى ماذا تصنع بنفسها . لم تبدأ التحية ، ولا تأملت ، أو أطالت النظر . اكتفت بالنظرات العابرة والحيائية .

تلتقى بالجيران ، أو من يقصدونهم ، فى صعودهم ، ونزولهم ، على السلم الرخامى . قد تتعرف إلى الملامح ، لكنها لا تعرف إن كان الشخص من سكان العمارة ، أم من الطارئين عليها ؟

ترد على التحية بكلمات مدغمة ، أو بهزة رأس .

تبينت أنها لم تعد تستطيع إقامة علاقة تذيب شعورها بالوحدة . طالت العشرة ، فلم تتصور أن حياتها تخلو من محرم . يغيب الانتظار والشوق والقلق واللهفة والراحة والفهم والامتنان والاطمئنان والاستغراق والمؤانسة والبوح والهمس بالسر والأسئلة والإيماءات المتواطئة والحب والمداعبة والفرحة وتقاسم اللقمة والمشاهدة والنظر إلى أفق البحر .

حين عرضت أن تصحبه إلى السوق ، احتواها بنظرة مشفقة :

- لن ينقصك شيء ، كل ما تحتاجينه سأحضره بنفسى ، أو أكلف أحد السعاة .

وأشار بيده ناحية النافذة :

– زحام الإسكندرية يختلف عن هدوء دمنهور !

قالت لفاطمة :

– أراد محرم أن يريحنى ، فحدث العكس !

قالت فاطمة :

– حب الأستاذ محرم لك مضرب الأمثال .

وهى تغمض عينيها :

– لو أنه ساعدنى على التعرف إلى الدنيا خارج البيت !

لا تذكر المناسبة ، لكنها أصرت على العودة إلى دمنهور .

اتجه إليها بنظرة مشفقة :

- لا بأس من عودتك ، لكن هل تعرفين الطريق ؟

غلبها الارتباك .

الدنيا خارج البيت تبدو غامضة . ما لم تكن فى صحبة محرم ، يصعب عليها السير والفرجة والتأمل .

فى دهشة :

- توصلنى إلى بيت أبى ، أو إلى محطة الأوتوبيس .

اتسعت الابتسامة المشفقة ، فملأت وجهه :

- هل أترك جزءاً من نفسى ينفصل عنها ؟

فهمت المعنى ، حركت شفتيها كمن تعد نفسها للكلام ، لكنها ظلت صامتة .

وضعت ما لم يطلبه الفرع من أوراقه فى المكتبة ، وأغلقت عليها . ستة أرفف من خشب الزان ، مغلقة ، بعرض متر وارتفاع يقرب من المترين . عنى محرم بصف الكتب فى داخلها بما يسهّل البحث عن الكتاب الذى يريده. قصرت جلوسها على الصالة ، ونومها على حجرة هناء - هذا هو الاسم الذى اعتادت أن تسميها به - تركت لفاطمة تنظيف حجرة النوم ، وترتيبها ، تغلقها فلا يدخلها أحد .

تبينت خلو حياتها من الأصدقاء . زملاء محرم فى العمل يزورونه برفقة الزوجات ، محرم هو الذى يعرف عناوين البيوت ، ويسجل أرقام التليفونات . يكرر اعتذاره بأن انشغاله فى المكتب والبيت لا يتيح له حياة اجتماعية صحيحة .

لم يترك فى حياتها صداقات حميمة ، ولا أماكن كثيرة تستعيدها الذاكر. كلمها - فى اليوم الثانى - عن اختلاف الظروف بين دمنهور والإسكندرية .

وعدها أن يأتي لها بما تريده ، أو تنادى على جودة البواب ، فهذا عمله .

حملت فى العام الأول لزواجها . انشغلت بما فى بطنها ، وبهناء بعد الولادة ، تناست ما وعدها به محرم أن يتيح لها الحصول على التوجيهية أو الثقافة العامة .

تغلق عليها باب الشقة ، لا تزور ولا تزار . فاطمة ـ وحدها ـ تتردد على الشقة مرة كل أسبوع ، تغسل الثياب ، وتساعدها فى ترتيب البيت .

يمضها إحساس أن الناس ـ حتى القريبين منها ـ ليسوا بحاجة إليها . تسلم نفسها إلى شرود ، لا تتابع أحاديث هناء ورامى عن بوالص التصدير والاستيراد وأذونات التخليص وأسعار العملات وفوائد البنوك وشهادات الاستثمار والمضاربات وشركات توظيف الأموال وضريبة المبيعات والإكراميات وغلاء أسعار الشقق .

تتنبه إلى أنها تسير فى الشقة ، بلا سبب ، ولا اتجاه تمضى إليه .

ربما تبينت أنها ظلت فى جلستها المطلة على البحر ، صامتة ، لا تفكر فى شيء محدد . قد تخترع جزراً تعيش فيها ، تأنس إلى مخلوقاتها ، يترامى ـ فى جلستها وراء النافذة ـ صوت تكسر الأمواج على المصدات الأسمنتية ، وصرخات النوارس فى امتداد الشاطئ . لا يبين سوى أفق البحر ، وضوء الشمس ما بين طلوع الصبح إلى المغيب ، وتناثر النجوم حول القمر فى ظلمة السماء ، وومضات الفنار الدائرية ، المتوالية ، إلى ما وراء البنايات العالية ، وما بعد الأفق .

لا تذكر إن كانت قد لاحظت ـ قبل أن تعيش الوحدة ـ تصاعد الأصوات من نافذة الطابق الثانى ، ضحكات نسائية وأغنيات وشتائم .

قالت فاطمة لنظرة الاستياء فى عينيها :

– الشقة يستأجرها الآن مفروشة ناس من الخليج .

أضافت إنه لم يعد من مستأجرى الشقة سوى أصغر الأبناء ، هو الآن فى حوالى الخامسة والخمسين ، تقاعد بمعاش مبكر ، وانتقل إلى الإبراهيمية مع ابنته التى لم تنجب من زوجها . سكان الشقة الأولى فى الطابق الأول أسرة قبطية ، مات الزوج ، تقضى الزوجة شيخوختها مع ابنتها وزوجها وحفيدين فى المرحلة الثانوية . سكان الشقة الثانية فى الطابق نفسه ، أبوان وثلاثة أبناء يعملون فى مشروع تجارى ، يتنقلون له بين الإسكندرية ومدن أخرى فى مصر وخارج البلاد . الطابق الثانى يتجاور فيه أسرتان :تاجر فى شارع الميدان ورث عن أبيه الشقة والتجارة ، وضابط شرطة فى مصلحة الجوازات والجنسية ، استأجر الشقة بعد أن هجرها من تبقى من السكان . الجار فى الشقة المجاورة زَوّج أبناءه ويقيم مع زوجته المريضة بالقلب ، لا تغادر الشقة إلا للطبيب . الشقة الفوقية أغلقها سكانها على الفراغ ، بعد أن تناقصوا بالموت ، وبالسفر . الشقة الأخيرة ـ أمام سلم السطح ـ ذات مساحة أصغر ، جعلها صاحب البيت مكتباً يحتفظ فيه بأوراق وكالته بشارع فرنسا .

ولونت فاطمة صوتها :

– جيرانك ناس طيبون !

لم يعد فى حياتها ما يثير الأسئلة ، لا شيء يستلفت تأملها ، راوغها اختلاط الأشياء بما يصعب تفسيره . غابت الفوارق بين ما هو حقيقى ، وما تسلل إلى حياتها .

تمنت الموت وهى نائمة ، تنام فلا تصحو . رافقها التوقع ـ وهى تسلم جسدها ـ كل مساء ـ إلى الفراش ، أن تستيقظ فلا تجد نفسها ، تجدها ميتة !

تعالى رنين التليفون ، فتنبهت إلى وجوده . كانت قد نسيته تماماً . كاد استعماله يقتصر على محرم ، يدير القرص ، ويتلقى المكالمات .

لاحظت ارتعاشة في يدها ، وهي تدنى السماعة من أذنها :

– من ؟

قالت لنفسها : باسم .

توقعت أن يكون هو ، تقاسمه الفراش منذ طفولته . يطلب منها أن تظل إلى جواره ، تروى له الحكايات : السندباد البحرى ، والشاطر حسن ، وست الحسن والجمال ، والسفيرة عزيزة ، وكان يا ما كان ، فى سالف العصر والأوان .. يا ست يا ستنا ، ياللى قصرك أعلى من قصرنا ، ما عندكيش عنقود عنب ، للعليل اللى عندنا .. مال سنانك كبرت كده ليه يا جدتى ؟ ، عشان أكلك بيهم .. يا بير يا بير ، اديهم صراصير كتير .. الساعة دقت اتناشر ، لازم أرجع البيت .. افتح يا سمسم .. دى سكة السلامة ، ودى سكة الندامة ، ودى سكة اللى يروح ولا يرجعش .. سلْو بلدنا ما فيش عازب يعيش .. عاشوا فى تبات ونبات ، وخلفوا صبيان وبنات .. حكايات تستعيدها ، يستعيدها ، تضيف ، وتحذف ، بما تلمحه فى عينيه من أمارات الإعجاب أو الخوف .

تعرف من صوت تنفسه الهادئ أنه قد استغرق فى النوم . تنزل من السرير بجانب جسدها وهى تحاذر أن تصدر صوتاً . يصحو فينادى عليها، تحضه على تناول الطعام : الأولاد فى سنك لابد أن يأكلوا جيداً .

الأشهر السبعة الأخيرة قاسمته فيها حجرته ، فعمقت علاقتهما . لم تعد تتصور الحياة بدونه . تدرك أن هذا هو تصوره . هو أقربهم إليها ، تأخذ منه وتعطى له ، يصارحها بما يكتمه عن هناء ورامى .

أهملت تحذيرات رامى بأن تمنعه من النوم إلى جانبها :

- أنت تفسدينه بهذا التدليل !

أهملت تحذيراته بألا تعطى باسم من النقود ما قد لا يحتاج إليه ، تحرضه على الإنفاق غير المحسوب .

قالت لهناء :

- أتمنى أختاً لباسم .

قالت هناء :

- رامى يرفض حتى تتحسن ظروفنا .

قالت مهونة :

- الطفل يولد ورزقه معه .

- كنت تعترضين على رامى ؟!

دون أن يجاوز صوتها نبرته الهادئة :

- ولازلت !

فى أول أيام باسم بكلية الهندسة ، قال له رامى :

- إن أنهيت الدراسة بتقدير ممتاز .. سألزم الكلية بتعيينك معيداً .

بداية الطريق هى التى شغلته ، وليست النهاية . واجه دنياه الجديدة بالتوجس والدهشة والقلق والاكتشاف والخوف .

أعطته نجاة أذنها ، ينقل لها أحداث كل يوم : المبنى ذو الأعمدة الهائلة ، والدرجات الرخامية ، المدرجات المزدحمة بالطلاب ، المعامل ، المعدات الضخمة ، الكافيتريا ، تبادل قراءة الصحف ، المناقشات السياسية ، الصداقات الجديدة .

احتضنته بنظرة دافئة :

- أهم شيء أن تتفوق فى دراستك . هذا ما يريده أبوك .

وهو يهز شفتيه المرتجفتين :

– بابا يريد ما يحبه لى ، لا ما أحبه أنا لنفسى .

وتنهد :

– بابا يريدنى فى قالب هو نفسه لا يعرف شكله !

– أبوك لا يريد إلا نجاحك .

غلف باسم صوته بجدية :

– تأتين أو آتى إليك ؟

أعدت كلاماً ، ثم أغفلته ، عن إحساس الضيفة بعيداً عن البيت ، تستأذن لتصرفاتها ، تحتفظ برأيها فيما يثار من أسئلة ، تبتعد إذا مال رامى وهناء إلى الهمس ، تدرك أنهما يتكلمان فيما لا يريدان أن يطلعاها عليه ، تلزم حجرة باسم ، لا تسأل عما تشاهده ، أو تقرأه ، تتنازل عن المواعيد التى ألفتها فى تناول الطعام . تهمل ميلها إلى الوجبات الساخنة ، الخضار المطبوخ وقطع اللحم والأرز . تعرف أنه يدّخر لصفقة جديدة ، فهو يقصر معظم الوجبات على التونة المعلبة وشرائح البطاطس والسلاطة الخضراء . ربما كان ذلك فى وجبتين متتاليتين . لم تكن تحب نوعية الطعام، وإن لم ترفض ، ولا أظهرت ما يشى بالاعتراض .

وهى تتعمد أن يسم التهلل صوتها :

– مذاكرتك أفضل !


ع. دسوقي

تأكدت من موضع الحقيبة القماش بين ساقيها . خشيت أن تروح فى النوم ، فلا تجد الحقيبة إلى جانبها .

لم تتصور أن ملاحظتها حول تأخر باسم فى العودة إلى البيت ستؤذى علاقتها بهناء ، تنتهى بها إلى الجلوس وحيدة على كرسى فى حديقة المنشية. إلى اليمين شارع محمد كريم ، وقضبان الترام ، ونصب الجندى المجهول ، تقابله فيلا جميلة كأنها قصر (عرفت - من فاطمة - أنها القنصلية الفرنسية) ، محاطة بسور من الياسمين وقضبان الحديد المدببة ، ومن الناحية الأخرى مبنى المحكمة الذى ترى واجهته الخلفية من نافذة الشقة ، ومن بعد ، طريق الكورنيش ، والأضواء المتناثرة فى ظلمة البحر . إلى اليسار تمتد الحديقة إلى ميدان محمد على ، والشوارع التى تعرف ملامحها، وإن كانت لا تعرف أسماءها . الدكاكين - فى المواجهة - ينفذ الصمت والأضواء الخافتة من انفراجات أبوابها المواربة .

ثنت نظرة عفوية إلى ظل المبنى الزجاجى المصمت خلفها ، وحركة المرور القليلة فى الشارع الموازى للحديقة .

آلمتها شتمة رامى لباسم .

قالت :

- باسم لم يعد صغيراً ، من حقنا أن نحاسبه ، لكن الإهانة غير مقبولة!

صرخت هناء :

- هذا ليس شأنك !

تركزت مشاعرها فى نظرة عينيها ، محملتين بالحزن والألم :

- أنا جدته ..

- وأنا أمه !

وأشارت بيدها ، كى تظل صامتة :

- تكررين نصائحك ، كأنك واعظة .

واختلج صوتها بنبرة غضب :

- عودناه ألا يعطى أذنه لغير أمه وأبيه !

تقلصت شفتا نجاة فى مغالبة للألم :

- تعاملينني كضيفة .

رفعت إصبعها فى وجهها :

- أنت أمى .. لكنك ضيفة على أسرتى ..

حدجتها بنظرة متأملة : نزعت السواد [لم تتصور - منذ وفاة محرم - أنها ستخلع السواد] ، ترتدى بنطلوناً من الجينز وبلوزة حريرية بيضاء ، واسعة الكمين ، تناثر فيها الكثير من الدوائر السوداء الصغيرة .

هل الملامح - كما قال محرم - هى الأقرب إلى ملامحها : الشعر الذى صنع هالة سوداء حول وجهها ، يعمق بياض البشرة ، العينان العسليتان ، الشفتان المكتنزتان . هل هذه هى ، أم أنها اكتسبت من رامى ملامح لا تفطن إليها ؟

شعرت بالفوضى فى داخل ذهنها ، تمنعها من التفكير على نحو صحيح أرادت أن تتكلم . عانت تعثر الكلمات على شفتيها ، أو أن المعانى تلاشت من ذهنها . أدركت أن رامى أقام جداراً غير مرئى بينها وبين هناء .

زفرت :

– ربما من الأفضل أن أعود إلى بيتى !

– هذا شأنك !

عكست ملامح رامى عدم رضائه عن حدّة هناء ، وإن اكتفى بكلمات مشفقة من أن تترك البيت فى منتصف الليل .

يصعب عليها التخلص من الإحساس بأن رامى هو من يجب إلقاء اللوم عليه . كر السنين لم يقربه منها ، ظل بعيداً عن نفسها .

تثيرها التنازلات القاسية ، والتى لا مبرر لها ، من هناء ، مقابلاً لحرص رامى على امتلاكها . تعرف أن ابنتها قالت ما أراد زوجها أن يقوله ، تنصاع لما يقوله ؛ لأن هذا هو ما يريده ، تنفذ أوامره دون أن تفهم المعنى تماماً ، تلتقط إيماءاته ونظراته وتلويحات يده . تكره تدخلها فى حياتها ، ولا تناقش سيطرة رامى بما يصعّب عليها مجرد التفكير .

هو لا يحبها ، وهى تبادله الشعور نفسه .

حتى نظرتها إلى ظهره ، كانت تنعكس فيها روحه العدائية ، يحرص أن يشد قامته ، كأنه يتحدى ، أو يتهيأ للعراك .

غاظها التصرف :

ـ لم تعد صغيراً ، قد ترفع السدادة بأسنانك فتفقدها !

وهو يغتصب ابتسامة :

ـ كل تصرفاتى لا تعجبك !

يغيظها ارتداؤه ملابسه الداخلية ، والسير حافياً ـ فى البيت ـ أشهر الصيف ، تدقيقه فى الطعام الذى يطلبه . لم يكن محرم يأبه بما يقدم إليه ، يأكل ما تضعه على المائدة . تعيب على رامى احتساء الشوربة كأنه

يمتصها، إهمال انسكاب الطعام على بيجامته ، تجشؤه المفاجئ دون أن يداري فمه . قد يجمع - بأطراف أصابعه - ما تناثر على المائدة من بقايا الطعام ، ويقذفها إلى فمه .

يتحسس بطنه براحته :

- صار لي كرش ، يجب أن تقلل هناء من الأكلات الدسمة .

يعلو صوتها بالاستياء :

- حتى في الشراهة تلقي اللوم على هناء ؟!

يكتفي بنظرة محايدة ، ويعود إلى ما بين يديه ، كأن الأمر لا يعنيه .

تعرف أنه كون ثروة من تجارة السوق السوداء ، وبيع العملات ، وغسل الأموال . يشتري من صانع فخار بالمتراس قطعاً يغلفها بالرسوم والنقوش الملونة ، وبالرمل المثبت بالصمغ ، يبيعها للبحارة الأجانب والسياح كأوان وتماثيل فرعونية وبطلمية .

يثق أن الفوز في الحياة لا يحتاج إلى قراءات ، ولا إلى شهادات عليا ، وإنما إلى الفهم والشطارة ، والحصول على كل ما تستطيعه دون خسارة إلا أقل القليل . يحرص أن يحسب كل شيء بدقة ، بالأرقام والتواريخ والأسماء والأماكن . الأرقام - وحدها - هي ما يعنيه ، ما يشغله ، لا شيء في حياته إلا الأرقام ، الجمع والطرح والقسمة والضرب والزيادة والنقص .

ألزمها مقاسمته دفع مصاريف الدروس الخصوصية لباسم ، وإيجار الشقة ، وفواتير المياه والكهرباء والتليفون .

وهو يعلو برأسه :

- أرفض أن أكون موظفاً ينفذ التعليمات !

ثم وهو يحك ذقنه بأظافره :

- أرفض الفرجة بينما الآخرون يستأثرون بكل شيء !

يتكلم عن القواعد الجديدة التي تحكم العلاقات بين الناس ، اختفت الجيرة والصداقة والمودة . حل بدلاً منها انتهاز الفرص ، والحصول على ما قد يكون حقاً للآخرين . ازدحمت الغابة بحيوانات لم تشهدها من قبل ، شراستها تفوق الوصف . إذا أردت العيش فلابد أن تكون أسداً . الحب يجوز بين ذكر وأنثى ، رجل وامرأة ، لكنه صعب في المعاملات التجارية ، التجارة منافسة وخصومة ، حتى بين شركاء العمل الواحد . لا بأس بالحب في الأغنيات والأفلام ، لكن التجارة تقوم على الحرب وحدها ، زماننا الحالي يحتاج إلى قراءات متعمقة في القوانين ، وفهم لأصول التعامل ، والتصدير والاستيراد وتخليص الصفقات ، والمناقصات ، والمشروعات ، وأذونات الصرف ، وقروض البنوك . لم يعد العمل في الميناء بمنطق خذ حق الحكومة، وأعطني حقي . خذ ما ليس من حقك ، وأعطني ما أطلب حتى لو يكن من حقي . مصر كلها - الآن - سوق حرة ، لا مجال للحياة فيها إلا الشطار ، من يعرفون قيمة المال ، ويبرعون في استثماره .

قالت :

- أنا أحب الطرق المستقيمة .

قلب شفته السفلى متظاهراً بالحيرة :

- ماذا نفعل إذا كانت كل الطرق ملتوية ؟

نطق وجهها بالاستياء ، وإن حافظت على هدوئها :

- لا توهمني أن الخطأ هو المتاح الوحيد .

- لا أتحدث عن صواب أو خطأ ، وإنما عن كيفية مواجهة الظروف .

أعادت النظر إليه ، كأنها تراه للمرة الأولى : أقرب إلى الامتلاء ، قامته

طويلة ، لون بشرته مائل إلى السمرة ، جبهته عالية ، عيناه تعانيان جحوظاً واضحاً ، أنفه كثمرة كمثرى صغيرة ، شفتاه ممتلئتان ، يميل إلى المقاطعة ، حتى من قبل أن يستكمل محدثه إبداء وجهة نظره ، يجيد سرقة الحديث ، فيقصره على نفسه . يلجأ إلى يديه وتعبيرات وجهه ، لكى يحدث التأثير الذى يريده . يكثر من القسم بالطلاق ، وألفاظ السباب ، لا يفسر سلوكه ، ولا يعتذر عنه . يروى النكتة ، ويضحك عليها ، دون أن ينتظر رد الفعل . إذا ضحك اهتز جسده كله ، يذكرها بقرد .

كانت هيبة محرم تملى عليه تصرفاته السابقة ، وكلماته التى تتدبر المعانى جيداً ، ومراعاة العيش فى بيت ليس بيته .

حين أمسك ورقة وقلماً ، وعرض أن يحسب لها الفرق بين معاش زوجها والمعاش الذى تحصل عليه ، ربتت ركبته :

ـ ما أتقاضاه يكفى ويزيد !

لم يكن لديها ما تتكلم فيه . تفضل الصمت ، يحاول فتح مغاليق صمتها، يبدى ملاحظة فيما لا شأن له به ، أو يطلق نكتة ، يضحك قبل أن يتدبر وقعها ، مجرد أن يستفز عزلتها ، تكتفى بإيماءة ، أو بابتسامة متكلفة . إن تكلم يتجه بعينيه إلى الناحية المقابلة ، ينثر بين عباراته كلمات بالإنجليزية ، يعرف أنها لا تفهمها ، مجرد حرص على الاختلاف ، يخلط فى كلماته بين المزاح والغمز واللمز والاستفزاز ، ربما قال العبارة ، ثم مال على هناء يكلمها دون انفعال من أى نوع ، كأنه لم يقل شيئاً .

قال لها صباح أول أيام العيد :

– إن شاء الله تكونين معنا فى العيد القادم .

حدجته بنظرة مستغربة :

- أين سأكون ما لم أكن هنا ؟!

دارى ارتباكه بتفادى نظراتها :

- الأعمار بيد الله !

بدت المسافة بينهما متسعة بما لا يمكن وصله .

لم تعد تشعر بالراحة فى وجوده ، تغيظها تصرفاته ، وملاحظاته ، وتلميزاته ، وكلماته المستفزة ، تسخفه . فيظل على هدوئه ، لا يبدى لقولها تأثراً على أى نحو . يداخلها توقع بأنه يمكن أن يقول أى شيء ، ويتصرف على أى نحو .

ربما واصل الكلام دون أن يلحظ ما إذا كانت تصغى إليه . تكسو وجهها جهامة تصده عنها ، استطاعت - بصمتها ، وردودها المقتضبة على ما يوجهه إليها من أسئلة - أن توصل إليه إحساساً بعدم رغبتها فى الكلام . تمر الساعات دون أن يتبادلا كلمة ، كلماتها تتجه إلى هناء ، أو باسم ، تثيرها مفرداته النابية .

فاجأها بالقول :

- ألا تفتقدين حضن حماى ؟!

لابستها قشعريرة فى طول عمودها الفقرى ، لم تكن تجيد إخفاء مشاعرها ، تحتفظ بهدوئها ، لكن الملامح تبين عما تحاول إخفاءه . شعرت أنها لا تطيق أن تسمعه ، هو شخص لا يحتمل .

قرب أصابع يده - مضمومة - من شفتيه المزمومتين :

- ألا تشتاقين لقبلاته ؟!

وتناول السكين يقشر ثمرة المانجو :

– موت الرجل أحال حماتى إلى المعاش فى عزّها !

وهى تغالب انفعالها :

– لا تتحدث بهذه اللهجة فى وجود باسم .

غالب توتره ببسمة سخرية :

– باسم رجل ، عليه أن يعرف لغة الرجال !

أطالت التفكير فى معنى الكلمات : هل هى عفوية أو مقصودة ؟

حرصت على العزلة والانطواء ، فهى تلزم حجرتها معظم الوقت ، لا تغادرها إلا للمشاركة فى تناول الطعام ، ولا تكلمه إلا رداً على سؤال . تضع فى نظراتها إصرارها على المسافة التى تضعها بينها وبينه ، تعيد تفسير كلماته وإيماءاته فى معانٍ لم تخطر لها من قبل ، ولا توقعت أن تشغلها ، تجيب عن أسئلته بكلمات قليلة ، تعطى المعنى ، ولا تتكلم إلا بعد أن يبدأ هو الكلام ، يسأل ، أو يبدى ملاحظة ، أو يروى ما يهمه أن يرويه . ربما اكتفت بنعم أو لا ، تتجه بنظراتها إلى الناحية المقابلة .

علا صوت هناء بالغضب ؛ لأنها سجلت توكيلاً لعبد الرحيم الساعى بفرع منظمة الصحة ، فيتسلم معاشها من البنك :

– فعلت هذا حتى لا أعرف حقى فى ميراث أبى .

اصطبغ وجهها بحمرة :

– ميراث ؟!

– ما تركه أبى غير المعاش .

أحست أن شيئاً يتفتت فى داخلها :

– لم أحصل على مليم خارج إعلام الوراثة .

وأودعت نظرتها تأثراً :

- إلى متى تكونين صوت رامى ؟

عابت على هناء أنها تظل صامتة أمام كل ما يقوله رامى ، وكل ما يفعله، تنصت لما يقوله ، وتلبى كل ما يطلب ، لا تسأل ، ولا تناقش ، ولا تبدى ملاحظة ، لا تحاول حتى أن تسأله عن معنى الكلمة ، أو التصرف . كأنها انجذبت إليه تماماً ، ذابت فيه ، كأنها دمية يجيد تحريكها بخيوط غير مرئية، حتى الآراء التى تؤمن بها هناء ، أو توافق عليها ، ما تلبث أن تبتلعها، توافق - بالصمت .

على ما يصدر عنه من آراء وتصرفات ، لا تعلق ، ولا تناقش . تضع راحة يدها على ظهر اليد الأخرى ، وتخفض رأسها ، كأن الأمر لا يشغلها ، أو أن رامى ألزمها الصمت . تطل من عينيها نظرة استكانة ، لا تواجه ، ولا تحدق ، تكاد لا ترتفع عن الأرض .

- أنا لم أكن أعترض على ما يقرره أبوك ، لكننى كنت أناقشه .

مالت هناء إلى تقليده . كانت تشاركها شاى الصباح ، لا تطلبه ثانية فى اليوم كله ، هى الآن تشارك رامى شرب الشاى والنسكافيه ، وتدخين السجاير أيضاً . أظهرت دهشتها وغضبها ، فأشاحت هناء بيدها فى لا مبالاة .

اعتادت تردد هناء على البيت ، تدفع حقيبتها الجلدية أمامها ، فتعرف أن رامى أغضبها ، وأنها تعود بثيابها .

أبدى ملاحظة على أداء على الحجار لأغنية " صلينا الفجر فين " ..

قالت فى لهجة مداعبة :

- أغنيات على الحجار لا تناقش !

ورددت :

صلينا الفجر فين .. صلينا فى الحسين

علا صوته بالانفعال :

– تسخفيننى من أجل مطرب ؟!

ضربت نجاة على صدرها :

– تعودين بحقيبتك لهذا السبب ؟!

كانت هناء تكتفى برواية بواعث ى أمها ، تعيد نجاة ما سمعته على محرم ، يعفى ابنته من الأسئلة خو عليها من مجرد التصور أنه يعرف أسباب عودتها إلى البيت .

مرة وحيدة ، أكتفت نجاة بالغضب فى داخلها . كتمت ما روته هناء عن تحسس رامى جسدها وهى نائمة . ثار لارتدائها ملابسها الداخلية . هى إذن تكرهه ، وترفض مضاجعته ، هى ليست المرأة التى أراد الارتباط بها . أغنى الأسر رشحتنى لبناتها ، لكننى اخترتك أنت ، تزوجت المرأة الخطأ ، وها أنا ذا أدفع ثمن غفلتى .

رفضت أن تعيد ما قالته هناء . لم تتخيل كيف يتقبل محرم سماعه .

همست بتمازج الدهشة والحيرة :

– هل يجب على الزوجة أن تتعرى وهى نائمة !

قالت هناء وهى تخفض رأسها :

– لم يطلب ذلك من قبل !

تقلصت ملامحها بالامتعاض :

– سبب لتوجيه اللوم !

حين أبدى رامى ضيقه من ترحيب أبيها بعودتها ، واجهه محرم بالاستياء :

- أنت أخذتها من هذا البيت ، إذا حدث ما يؤلمها فهى تعود إليه !

يضيف إلى استيائه ما يعرفه من هناء أنها لا تضع فى حقيبتها - حقيبة واحدة - إلا ما يوافق عليه رامى ، هو الذى يحدد ما ينبغى ، وما لا ينبغى ، أن تحمله فى عودتها إلى البيت ، كأنه يملك كل شيء ، ولا تملك هى شيئاً .

البطاقة الصغيرة ، الملصقة على الجدار ، فوق مكتب هناء ، ألفت رؤيتها لسنوات " هناء محرم ، دكتوراه فى إدارة الأعمال من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة " .

- منحت لنفسك درجة الدكتوراه .. هل حاولت الحصول عليها ؟

احتمت بمظهرها فى الجلوس داخل الحديقة ، وجهها الخالى من المساحيق ، المحاط بإيشارب يغطى شعر الرأس ، والتايير الأسود المنسدل إلى قدميها .

هى لن تثير الريبة ، ولا الرغبة فى المضايقة .

- الوقت متأخر .

تأملته من تحت عينيها . الضوء الساقط من أعلى أظهر ملامحه . فى حوالى الستين ، يميزه شعر مهوش ، وحاجبان كثيفان اختلط فيهما السواد بالبياض ، وأنف مفلطح ، وشفتان متورمتان . يرتدى بذلة صيفية ، وصندلاً أطلت منه أصابع متسخة .

تملكتها حيرة ، لا تدرى كيف تتصرف ؟ ماذا تقول ؟

ألم يلحظ التفافها بالسواد ؟!

هز راحتيه فى الفراغ :

- نحن فى إبريل .. الخماسين صعب ..

استطرد فى نبرة متواطئة :

- هواء الليل لطيف .. يغرينا بترك البيوت .

هزت رأسها بما لا يهب معنى محدداً .

مط شفته السفلى :

- الربيع !

ثم هز رأسه نافياً :

- مصر لا تعرف الربيع ولا الخريف ، جوها شتاء وصيف .

وأشار بيده ناحية البحر :

- الربيع هناك فصل للحب .

أومأ إلى شابين ، التصقا تحت ظل شجرة هائلة الأغصان :

- سنموت ونصير عدماً .. لماذا لا نستمتع بحياتنا القصيرة ؟

رمقته بنظرة مستغربة : هل يتصور استجابتها لكلماته الملمحة ؟ هل تبدو مهيأة لعلاقة جسدية ، أو حتى عاطفية ؟

غالبت التوتر فى صوتها :

- ما بقى من العمر أولى أن نقضيه فى العبادة .

ولونت نبراتها :

- للشباب ظروفه ، ولنا نحن ظروفنا .

بدلت جلستها ، اتجهت بنظرها ناحية ميدان محمد على .

أدرك معنى الكلمات ، والتصرف . مضى بعيداً .

قامت من جلستها فى بدايات النهار . حرضتها رؤية صاحب الكشك على ناصية شارع محمد كريم وميدان المنشية ، تأكد من وضع جهاز التليفون إلى جانب الواجهة الزجاجية ، وسط الصحف وعلب السجاير والشيكولاتة والمناديل الورقية .

استعادت الرقم فى ذاكرتها . أعدت نفسها لتكراره ، بحذف وإضافة ، حتى يرد الصوت الذى تطلبه .

هتفت بمفاجأة كلمة ألو المغموسة فى النوم :

- فاطمة !

– ست نجاة ؟

اغتصبت ابتسامة :

– تذكرتنى ؟

هى فاطمة التى تعرفها ، وإن بدت القامة ـ فى العباءة السوداء الواسعة ـ أقرب إلى الامتلاء ، التقاطيع المتناسقة ، البشرة الخمرية . العينان السوداوان الباسمتان ، يعلوهما حاجبان رفيعان . بدت فى جانب فمها سنة ذهبية ، وفوق خدها الأيسر شامة بنية صغيرة ، وأحاطت معصمها بثعبان من الذهب المضفور. عصبت رأسها بمنديل أسود ، زين طرفه بحواشى مطرزة . دست قدميها فى حذاء خفيف من الكاوتش .

حين أثقلها حمل هناء ، أقامت فاطمة فى الشقة . قامت بأعمال البيت ، وشاركت فى رعاية هناء ، حتى تقدم لخطبتها موظف بإدارة الأرشيف بالمكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية ، رشحه لها محرم . تباعدت زياراتها إلى البيت ، ثم اقتصرت على مكالمات التليفون .

قالت :

– لم أفعل ما يستحق قضاء الليل فى الطريق ..

استطردت فاطمة فى لهجة مداعبة :

– فى الحديقة .

أضافت مهونة :

– ما حدث اختبار لقوة إيماننا

وهى تغالب تأثرها :

– اختبار صعب !

تحرك فى داخلها ما طال احتباسه . غطت وجهها بالمنديل فى يدها ، وانفجرت بالبكاء .

لاحظت فاطمة أن سقف الشقة عال ، لا تصل إليه المقشة ، ولا المنفضة الريش ، ولا قطع القماش ، كما فى البيوت الجديدة . طلبت من جودة البواب أن يشترى ما سمته رأس العبد . أومأ بفهمه للتسمية . بدت رأس العبد هى الوسيلة الصالحة لإزالة العنكبوت والتراب من الأسقف ، والزوايا العالية للجدران .

لمحت – فى مرآة الصالة – تمعن فاطمة فى وجهها : أبرز الفستان الأسود بياض بشرتها . عيناها اللوزيتان ، أحاطت بهما هالتان من السواد . وامتدت خطوط رفيعة متعرجة على الجبهة ، وحول الفم ، وعلا الشفة زغب أصفر ، خفيف . تحيط رأسها وعنقها بشال أسود طرزت حواشيه بخيوط مذهبة . ترتدى عباءة سوداء سابغة ، لا يظهر منها إلا وجهها ويديها .

أشاحت بيدها :

– كبرت !

قالت فاطمة :

– ما أراه بضع شعرات بيضاء .. لو أننا صبغناها لن يزيد عمرنا سنة واحدة !

ثم فى نبرة متعاطفة :

– أنت فى عز الشباب .. حياتك أمامك !

أتت فاطمة من سوق الترك بخلطة أعشاب لإزالة التجاعيد من حول العينين . ترددت فى قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت نعومة فى موضع الخلطة ، فكررت استعمالها .

أزمعت أن يراها محرم - ذات ليلة - بما يرضيه .

تراجع للبودرة فى خديها ، والريميل حول عينيها ، والحمرة فى الشفتين:

– لماذا نبدّل خلقة الله ؟!

ألفت مشاركة فاطمة لها فى اختيار الطعام الذى تأكلانه ، ماذا تشاهدان فى برامج التليفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تظلان فى البيت ؟

تتحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واختفاء السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة فى أوانها .

تحكى لها فاطمة عند قدومها - فى الصباح - إن كانت قد ركبت ترام خمسة المتجه إلى المنشية ، أم اخترقت الشوارع حتى شارع السبع بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، تدور حول مبنى المحكمة الوطنية فى الزاوية المواجهة للبحر . تميل فى طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى القنصلية السويسرية ، فالبنايات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل البيت بألفة الأعوام .

تحدثها فاطمة - وهما تتناولان الفطور - عن حياتها خارج البيت ، عما لا تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصوره . التنقل بين بيتها فى كرموز وبيت ابنتها فى غربال ، تصفية ملابس الشتاء فى هانو ، أول شارع توفيق ، تأخرها عن المجيء لوقوفها بالساعات ، تحمل حفيدها ، أمام مستشفى دار إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادى تستحق بقك ، شروة سمك من باب عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود - زوجى - قال إن

مكتب المرحوم محرم بك مازال خالياً لم يشغله أحد ، إمام جامع العمرى قال لنا فى الدرس إن المرأة الدميمة غير ملزمة بالحجاب (تدارى ابتسامة مشفقة) من توافق على أنها ليست جميلة ؟ ، زحام المواصلات أخرنى هذا الصباح ، البلد كأنها تهاجر ، حتى السمك يغشه الباعة ، باع الرجل ـ فوق كوبرى كرموز ـ قشر بطيخ مغموساً فى الدقيق والبيض ، وسواه فى الزيت ، صدّق الناس أنهم اشتروا سمكاً مقلياً ، حادثة بشعة فى شارع مينا البصل عربة محملة بأنابيب البوتاجاز ، اصطدمت بسيارة ملاكى ، احترقت الملاكى بمن فيها ، ولد صغير .. تلميذ .. بتر ترام ستة ساقيه (تضرب نجاة صدرها بعفوية : باسم) !، ضابط مباحث اللبان ألقى القبض على تاجر مخدرات يبيع بضاعته فى تقاطع شارعى عمود السوارى وباب الملوك ، صفافير البواخر فى المينا الغربية أصيبت ـ منذ أيام ـ بجنون ، فلا تسكت .

تلتقط الأسماء والمفردات ، تحاول تجسيدها فى الذهن : كرموز وغيط العنب وكوم الشقافة وكفر عشرى وباب سدرة وعمود السوارى والبياصة ، تصل بين الأمكنة ، ترسم الملامح والقسمات .

لم تكن تبوح بمشاعرها لأحد ، وتكتم ما تعتبره سرها الشخصى .

تلاشى ما ألزمت به نفسها ، وما كان قائما بينها وبين فاطمة من حرج .

لا تناقش إن كان ما ترويه مما جرى ، أو ما يشغلها ، هو من الأسرار التى تأتمن فاطمة عليها ، لا تناقش حتى إن كان سراً ، أم أنه مجرد حكايات بين صديقتين ؟

خصصت لها حجرة القعاد ، السرير الخشبى الصغير لصق الجدار ، إلى جانبه طاولة صغيرة ، وكرسيين ، وثمة مرآة بيضاوية توسطت الجدار .

أتت فاطمة من سوق الترك بخلطة أعشاب لإزالة التجاعيد من حول العينين . ترددت في قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت نعومة في موضع الخلطة ، فكررت استعمالها .

أزمعت أن يراها محرم ـ ذات ليلة ـ بما يرضيه .

تراجع للبودرة في خديها ، والريميل حول عينيها ، والحمرة في الشفتين:

– لماذا نبدّل خلقة الله ؟!

ألفت مشاركة فاطمة لها في اختيار الطعام الذي تأكلانه ، ماذا تشاهدان في برامج التليفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تظلان في البيت ؟

تتحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واختفاء السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة في أوانها .

تحكي لها فاطمة عند قدومها ـ في الصباح ـ إن كانت قد ركبت ترام خمسة المتجه إلى المنشية ، أم اخترقت الشوارع حتى شارع السبع بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، تدور حول مبنى المحكمة الوطنية في الزاوية المواجهة للبحر . تميل في طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى القنصلية السويسرية ، فالبنايات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل البيت بألفة الأعوام .

تحدثها فاطمة ـ وهما تتناولان الفطور ـ عن حياتها خارج البيت ، عما لا تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصوره . التنقل بين بيتها في كرموز وبيت ابنتها في غربال ، تصفية ملابس الشتاء في هانو ، أول شارع توفيق ، تأخرها عن المجيء لوقوفها بالساعات ، تحمل حفيدها ، أمام مستشفى دار إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادي تستحق بقك ، شروة سمك من باب عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود ـ زوجي ـ قال إن

عنه ، أو تتكلم فيه . حدست أن جلوسها إلى فاطمة هو المخرج من وحدتها الصامتة ، التكلم فى ما يشغل خاطرها من الأحداث ، والتصرفات ، واستدعاءات الذاكرة ، وهواجس الوحدة .

لاحظت فى نفسها ميلاً إلى تأمل من يكبرونها فى السن : ماذا ستكون عليه حين تصل إلى أعمارهم ؟ ما يطرأ على ملامحهم من تغير ، هزال الجسد ، أو تهدله ، سقوط الشعر ، وشحوب بريق العينين ، وارتسامات التجاعيد حول العينين والشفتين ؟ ماذا يقولون ؟ كيف يتصرفون ؟ هل تسير بالبطء نفسه ؟ هل تقوى على صعود السلم ؟ هل تنطوى على نفسها ، أم تحتمى بتقدم السن فتفعل ما قد ترفضه الآن ؟

وفى وسط الأرضية كليم أسيوطى يمتد إلى قرب النافذة .

فى أول زيارة إلى الطبيب - بصحبة فاطمة - ارتبكت للسؤال :

- ما أحوال الأستاذ محرم ؟

خمن ما حدث لما مسحت - بظهر يدها - دموعاً طفرت من عينيها .

- هل ..

واستطرد فى نبرة مواسية :

- البقاء لله !

تكلمت عما تعانيه : تشعر - فى الصباح - بثقل جسدها ، فلا تستطيع القيام من السرير ، أو حتى مجرد الحركة .

قال الطبيب مهوناً :

- إذا طردنا الهموم فسنطرد الأمراض .

قاس الضغط ، ودرجة الحرارة ، وسأل عن ظروفها الصحية .

نصحها بأن تبتعد عن التوتر والقلق والإجهاد ، وتنشيط الدورة الدموية ، بالسير قدر ما تستطيع .

كتب خمسة ، وربما ستة ، أدوية . قال وهو يربت ظهر يدها براحته :

- الدواء لا نستعمله إلا عند الضرورة !

دفعها الفراغ والإحساس بالفقد إلى التفكير فى ما حولها ، وفى التوقعات ، تحاول أن تفكر فى شيء قد يكون تافهاً ، لمجرد التأكد من قدرتها على التذكر ، تستدعى أسماء أقارب وجيران ومعارف ، ترددها ، تلاحظ إن تعثرت فى قراءة الاسم ، أو تلكأ نطقها ، أو أنها نسيته .

تكتشف أنها تكلم فاطمة كثيراً ، تروى ، وتلاحظ ، وتبدى الرأى ، تسأل، لا تنتظر رداً عن أسئلتها ، ولا تنتظر حتى تستكمل فاطمة ما تسأل

بكلمات قاسية . عمق من ألمه أن أباه قرأ ما حرص على إخفائه ، ما كان يعتبره سره الشخصى . ليس مجرد خطأ يستحق المؤاخذة . قلب أبوه فى مكتبه وأوراقه ، حتى عثر على ما لم يتصور أن عينى أبيه تصل إليه .

تأملته بجانب عينها . أخذ ملامحه من أمه وأبيه ، ليس فيه ما يشبهها ، لكنها تحبه ، تقبل ـ من أجله ـ ما لا تتصور أنها تسكت عنه ، تشعر أنها تحيا من أجله ، أو أنه هو حياتها .

وهى تتظاهر باللامبالاة :

– من حق أبيك أن يؤدبك .

وربتت صدره :

– لابد أنك أخطأت .

اعتادت أن تكتفى بمشاهدة نتائج المشكلات بين باسم وأبيه . تختلف البواعث ، لكن المشكلات تظل قائمة .

تكتم الإشفاق على باسم فى نفسها ، وتكتفى بالمشاهدة ، والصمت .

ضغطت براحتها على يده :

– نتكلم فيما بعد ..

ثم وهى تتجه إلى المطبخ :

– يمكن أن تنام فى حجرتى .. لا أنام فيها منذ وفاة جدك .

أشار إلى نفسه :

– هل أقيم هنا ؟

نظرت إلى يديه الخاليتين :

– استرح الآن .. نتكلم فيما بعد .

لم يضع فى باله أن أباه يقلب فى أوراقه . يكتفى بالسؤال عن مذاكرته

قالت وهى تتفرس فى ملامحه ، الوجه المستدير الممتلئ ، المشرب بحمرة. العينين العسليتين ، الأسنان المفلوجة :

– مالك ؟

ألقى باسم بالحقيبة إلى منضدة السفرة :

– تركت البيت .

– لماذا ؟

ارتجفت شفتاه بالتوتر :

– بابا .. صفعنى ..

ومضت ابتسامتها المشفقة وهى ترقب تسحب باسم إلى حيث يجلس محرم ، تصرفه العفوى حين يرمقه رامى - لخطأ ما - بنظرة معاتبة ، يلاصق كتف محرم ، كأنه يحتمى بجده من غضب أبيه .

قالت :

– هذه ليست أول مرة ..

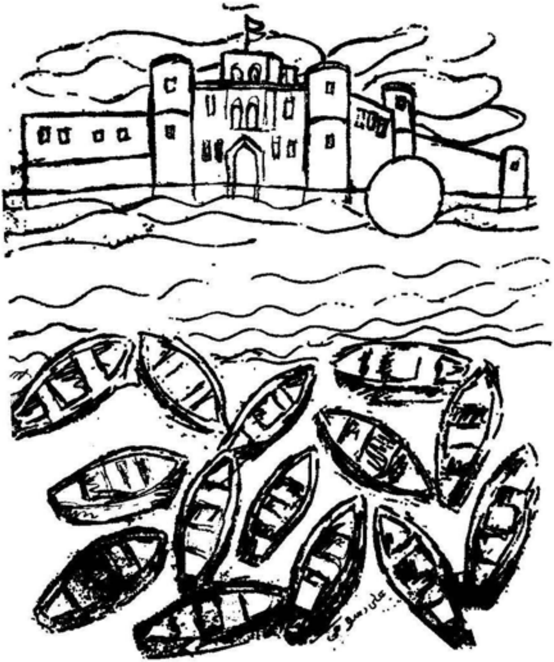
اتسعت عيناه بالدهشة :

– كأنك توافقين على ضربه لى ..

وتداخلت فى صوته نبرة محتجة :

– لم أعد صغيراً .. بعد أشهر سأدخل الجامعة .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يصفعه أبوه ، أو يلكزه ، أو يزجره



ومـا يحـتـاج إليـه . ربما لم يكن لديه ـ فى تلك اللحظة ـ مـا يشـغله . قلب الكراسة كمن يتصفحها . سقطت الورقة المطوية ، فالتقطها .

– لمن هذه الكلمات ؟

وعلا صوته كأنه يصرخ :

– من البنت ؟!

اكتفى بهز رأسه فى حيرة .

صاح للصفعة ، وللمفاجأة التى لم يتوقعها ، الزجر وسيلة أبيه لعقابه ، يظل فى صمته حتى تغيب المناسبة .

اندفع ـ بتلقائية ـ ناحية الباب . أهمل نداء أمه فى ركضه على السلم .

تناهى صوت هناء فى التليفون منفعلاً :

– باسم أخطأ ، ومن حق أبيه أن يعاقبه !

قالت نجاة :

– ابنك الآن شاب ، رجل .. لا تقيديه بالتحذيرات والأوامر !

استطردت كمن تلقى نصيحة :

– من حق أى شاب فى سنه أن يكون له أصدقاء وحياة خاصة ..

قالت هناء :

– أنت من تفسدينه !

وهى تعيد السماعة إلى موضعها :

– تكلمين أمك !

السفارة الإسرائيلية ، وطرد السفير ، وإدانة التأييد الأمريكى لحكومة تل أبيب . التحموا بطلاب العلوم والزراعة والحقوق والتجارة والآداب ، قدموا من شوارع صلاح سالم وتوفيق وسعد زغلول وطريق الكورنيش ، التقوا فى ميدان المنشية .

تفحصته نجاة كمن تتأكد من شيء :

– كذبة إبريل ؟

هز باسم رأسه دلالة النفى :

– نسيت حتى أن اليوم هو أول إبريل .

تدخلت فاطمة :

– المظاهرات فى مدن كثيرة .

رمقتها بنظرة متوجسة :

– كيف عرفت ؟

– قناة الجزيرة .

هزت رأسها فى صمت .

أول النهار ، تثبت فاطمة التليفزيون على قناة فضائية ، تتابع إرسالها أثناء تحركها فى الشقة . تطيل نجاة وقت بقائها فى السرير ، حتى تدعوها فاطمة إلى الإفطار .

ربتت ـ ذات صباح ـ كتف فاطمة :

– لا أعرف ماذا كنت سأفعله بدونك هذه الأيام .

لاحظت أنها تجيد فهم الناس بالفطرة ، مجرد أن تستمع إلى الشخص وتتابع تصرفاته ، تستطيع أن تعرف ما طبيعته ، وإن كان طيباً أم أميل إلى الشر .

فتحت الباب لتلاحق رنين الجرس . نظرت - بتساؤل صامت - للهفة فى ملامح فاطمة .

– مظاهرات فى المنشية .

هتفت بعفوية :

– باسم !

ضربت صدرها بيدها :

– بعد الشر عنه !

وملأت وجهها ابتسامة مهونة :

– البوليس لا شأن له بما يحدث ، يكتفى بالفرجة من بعيد .

ثم وهى تهز يدها :

– لا تخافى !

لم تخف قلقها حتى ترامى صفير باسم - الذى ألفته - فى صعوده على السلم .

ظلت صامتة ، وهو يروى ما حدث ساعات النهار : المظاهرات التى فاجأته هتافاتها داخل مدرج الكلية ، آلاف الطلاب تركوا مبنى كلية الهندسة، انطلقوا فى شوارع المدينة ، يرفعون الأعلام المصرية والفلسطينية، يندون بالهجمات الإسرائيلية على الضفة الغربية وغزة ، وباستمرار حصار مقر ياسر عرفات ، يهتفون لفلسطين والمقاومة وعرفات ، يطالبون بإغلاق

– لماذا لم تعد إلى البيت ؟

ـ أغلقت الشرطة الطريق إلى البيت . طريق الكورنيش مغلق بطوله ..

استطرد وهو يلتقط أنفاسه بين الكلمات :

– حتى الشوارع الجانبية أغلقت .

حدجته بنظرة مستفهمة :

– ما شأنك ؟

– هل أقدم لهم نفسى كى يقبضوا علىّ ؟!

ثم وهو يحاول تفادى نظرتها :

– ظللت فى محطة الرمل حتى فتحوا الطريق ..

لم تكن بعيدة ـ بأحاديث زوجها ـ عن قضايا السياسة ، ينتقل من قضية إلى أخرى ، يفسرها ، ويبدى رأيه . لا تفرغ الأحاديث ـ فى أوقات فراغه ـ بينها وبينه ، ولا تشعر ـ لحظة ـ بعدم الفهم ، أو الملل .

تداخلت فى عبارات باسم كلمات مما كان يتناثر فى أحاديث محرم إليها: أمريكا ، الوفد ، مجلس الأمن ، عبد الناصر ، التجمع ، القدس ، حرب أكتوبر ، مبارك ، كامب ديفيد ، السادات ، الانتفاضة ، التلوث ، الحزب الوطنى ، البطالة ، مجلس الشعب ، النكسة ، الأمم المتحدة ، الغلاء ، الفساد ، الرشوة ، الكرة ، الجماعات الدينية ..

اعتادت رؤية لوريات الشرطة فى موازاة رصيف الكورنيش ، صف طويل من اللوريات ، أطلت من قضبانها الحديدية أعين العساكر ، وتناثر بينها عساكر يحملون المدافع الرشاشة .

باحت لفاطمة بما تصورت أنها نسيته ، وعرفت من فاطمة ما لم تكن تعرفه ، حتى من قبل أن تصحب محرم ـ للمرة الأولى ـ إلى البيت .

عرفت كل منهما عن الأخرى ما تفضل مشاهدته فى برامج التليفزيون ، الطعام الذى تحبه ، الألوان التى تفضلها ، أغنيات تميل لسماعها .

اتجهت بنظرتها إلى باسم :

– كنت فى المظاهرة ؟

– كل الطلبة كانوا فيها .

شعرت بوجهها يشتعل :

– ألم تخف على أمك ؟ ألم تخف علىّ ؟!

– كنت واحداً من آلاف ، والشرطة لم تتدخل .

– لو أنها تدخلت .. هل كنت تمنعها ؟

شوح بيده :

– لا شأن لى بالمظاهرات ولا بالسياسة .

لما تحدث عن حضوره مهرجاناً لنصرة القضية الفلسطينية ، ارتعش صوت رامى بالغضب :

– أصرف عليك لتصبح مهندساً لا زعيماً سياسياً .

ووسم صوته بنبرة باترة :

– نحن أسرة محترمة ، لا شأن لنا بالسياسة !

لملم باسم جرأته :

– هل السياسة كذلك ؟.. هل هى شيء غير محترم ؟!

رمقه بنظرة مستاءة ، وعاد إلى الأوراق أمامه .

وهى تحاول إخفاء القلق :


ع. دسوقي

هل أصبح باسم جزءًا من المشهد الذى تكتفى برؤيته ؟!

اجتذبها من المطبخ - فى اليوم التالى - ترامى صيحات وهتافات ، من طريق الكورنيش .

أطلت من النافذة .

مظاهرة ؟! ألم يمنعوا سير المظاهرات في هذا الطريق ؟!

العشرات من الطلاب رفعوا الأيدى والأعلام والهتافات واللافتات ، يسيرون فى اتجاه المنشية ، ملأوا الميدان عن آخره . أحاط بهم صفوف من عساكر الشرطة ، فلا يتوزعون إلى الشوارع الجانبية .

قال باسم :

– ربما فطنت الحكومة إلى أن المظاهرات لا تقتصر على الإسكندرية .

وعلا صوته :

– كل الدنيا تتظاهر ضد العدوان الإسرائيلى على الضفة وغزة .

أضاف لدهشتها المتسائلة :

– شاهدى القنوات الفضائية .

سأله :

– هل هى مظاهرات كتلك التى خرجت أيام السادات ؟

قال :

– إنها ضد إسرائيل .. هذه المرة .

ووشى صوته بسخرية :

– أعلن السادات سحب قرارات الغلاء بعد خروج المظاهرات .. قد تعلن إسرائيل انسحابها من فلسطين هذه المرة !

مالت نجاة على باسم بنظرة متسائلة :

– وعيت على قضية فلسطين .. أما من حل لها ؟

قال باسم :

– إذا استرد الفلسطينيون أرضهم من اليهود .

– ولماذا أخذها اليهود ؟

ارتد العالم كله أمامه ، اختلطت الصور وتشابكت . أغمض عينيه يفتش عن الكلمات المناسبة ، ثم عبر بيديه عن الحيرة التى تتملكه :

– اسألى بابا !

استغربت الإجابة .

كان ـ منذ طفولته وحتى الثانوية العامة ـ كثير الأسئلة ، لا تقف أسئلته عند قضية محددة ، ولا معنى بذاته ، لا يتدبر تأثيرها ، وما إذا كانت تحتمل الإجابة ، أو تواجه بالزجر : كيف ولدتنى ماما ؟ أين كنت قبل أن أولد ؟ الله خلق الدنيا ، من الذى خلق الله ؟.. هل المسلمون وحدهم يدخلون الجنة ؟ لو لم نعرف أن الله موجود ، هل كنا نحاسب ،

وشى صوت رامى بالقلق :

- باسم عندك ؟

وضعت سماعة التليفون فى يد باسم .

تلاحقت كلمات رامى ، تحذر من اشتراك باسم فى المظاهرات .

نقل ما سمعه : التوتر يسيطر على المدينة . أغلقْ عساكر الشرطة أبواب الكليات ، حطّمها الطلبة ، ودفعوا العساكر أمامهم ، تدفقوا فى الشوارع يهتفون ضد شارون وإسرائيل . دارت معارك بين المتظاهرين والعساكر . اختلط الهتاف والشعارات المنغمة والصراخ والصياح وضربات العصى والغاز المسيل وإطلاق الرصاص فى الهواء . قُتل طالب ، وأصيب كثيرون . أغلقت الكليات والمدارس ، أنزلت المحال ستائرها المعدنية . حتى المحال التى ظلت مفتوحة، أصرت الشرطة على إغلاقها . اصطفت اللوريات والعربات المصفحة . سدت الكردونات مداخل الشوارع الجانبية والتقاطعات . خلت الشوارع إلا من المتظاهرين وعساكر الشرطة ، والشواطئ هجرها الناس ، لانوا بالبيوت والأماكن المغلقة . ارتفعت اللافتات والأعلام الفلسطينية فى الأيدى وصور ياسر عرفات وجمال عبد الناصر ، وألصقت على نوافذ السيارات . أطل السكان من الأسطح والنوافذ والشرفات . تعالت سارينات عربات الشرطة والإسعاف والمطافى .



وندخل الجنة والنار ؟ أين توجد الجنة ؟ وأين توجد النار ؟ هل الله فى السماء وحدها ؟ لماذا يصر بابا أن أنام بمفردى ؟ كيف يعلو الطائر فى السماء ؟ إلى أين تذهب السفن فى البحر بعد أن تختفى ؟ هل هى نهاية الدنيا ما نراه من التقاء البحر بآخر السماء ؟ لماذا تكرهين أبى ؟

أولى قبلاته لها فى الليلة الثانية لمجيئها . عادا من جلستهما على المقعد الرخامى ، تكلما فيما لم يدره أحدهما فى نفسه . ثانى يوم ، اكتفيا بالجلوس فى الشرفة المطلة على طريق الكورنيش . قامت للنوم ، فلحقها ، أدار كتفيها ، واجهته ، لامس فمها بشفتيه ، ثم ضغط . سرى بالنشوة فى جسدها ، شعرت أنها تغيب عما حولها ، وأنها ليست فى الدنيا.

غاب إحساس جسدها بالغربة فى حضنه ، يستكين ـ فى طمأنينة ـ إلى التفاف ذراعيه حول خصرها ، مداعبة راحتيه لعنقها ، وجيدها ، وصدرها ، قبلاته ، همساته المحرضة .

لم يكن للقاءاتهما الجسدية مواعيد يلتزمان بها . تحركهما العفوية ، تمهد للفعل : ومضة العين ، ملامسة اليد ، ارتعاشة الصوت . تحل لحظات ارتباك تشى بالفعل الآتى .

أشفق ـ فى البداية ـ من عدم فهمها . ترك ـ لتحقيق متعتها ـ نفسه ، تفعل ما تشاء ، تجوس فى مواضع الإثارة ، يستسلم لمداعباتها ، تظل سيدة اللحظة ، تأخذ ما تريد ، ويهمل ما يريده ، تجلس على بطنه كمن يركب جواداً ، تتجه بأعلى صدرها ناحيته ، أو تعطيه ظهرها . فتح عينيها على عالم جديد ، لم تكن تعرفه ، ولا تصورته من قبل .

لاحظ ـ ذات صباح ـ ميلها إلى استعادة تفصيلات ما لا يروى . تمازج فى لهجته الحسم والإشفاق :

– ما يحدث فى الليل ملك الليل وحده !

حين تباعدت لقاءاتهما العاطفية ، تعلل بأعذار تدعوه لأن يمضى الليل نائماً . أدركت أن الأوقات لم تعد كلها مناسبة ، تكتفى بالاستجابة فى الأوقات التى يختارها . تشعر باستيقاظ رغبته بنظرة تعرفها ، اختيار

تراجعت لرؤية باسم يحتضن البنت على الكنبة . أحاطها بساعديه ، ضغطها إلى صدره ، مال على وجهها ، قبلها فى وجنتها ، وفى ذقنها ، صعد بفمه إلى عنقها . امتدت راحته المتكورة داخل بلوزتها ، تضغط على النهدين الصغيرين . كانت البنت تطوح رأسها ، وتصدر تأوهات مكتومة فى محاولة للتملص ، حتى انفلتت منه .

عادت بصينية الشاى الذى أعدته لمساعدتهما على المذاكرة .

قدم البنت لها بأنها تشاركه المذاكرة ، يشرح أحدهما للآخر ما يغمض عنه . أذن لها أهلها بلقاءات البيت ، يزورها وتزوره .

قال أبوها وهو يغلق الباب وراءهما :

– مى أختك ، فاحرص عليها .

قالت لنفسها وهى تعانى الارتباك فى وسط الصالة : هل يكتفيان بعناق القبلة ، أو أنهما يمهدان للعلاقة الكاملة ؟

دفعت محرم لما هبط بشفتيه إلى عنقها :

– لا تفكر فى أكثر من هذا .

لم تكن تعرف عن علاقات الزوجين ما يعينها على الفهم . لم تهيئها نصيحة ، ولا مجرد إيماءة .

حين أغلق الباب وراءهما كانت تجهل كل شيء . فطن إلى أن إكراهها على العلاقة ربما يؤلمها ، فتكرهه . لا تزال طفلة ، ومن الخطأ أن يعاملها بغير مشاعر عمرها .



العبارات ، تلوين الصوت بنبرة أقرب إلى الهمس . امتد الهدوء إلى ميكانيكية العلاقة ، يقبلان عليها تكملة لما كان ، وما سيأتى .

وقال - ذات صباح - فى صوت خافت ، كأنه يحدث نفسه :

- يجب أن نعترف ، لم يعد لجسدينا ما كان فيهما من قوة !

كانت رغبتها على حالها ، لكنها رضيت استبدال ما اطمأن إليه من صداقة هادئة - أحبتها - بالعلاقة الجسدية .

يناوشه ما يدفعه إلى معانقتها . تحتوه رغبة فى أن يضمها إلى صدره . يصده الإحباط .

يكرر المحاولة ، حتى يستكين إلى الفشل .

اعتادت نومه إلى جوارها ، دون أن يقربها ، ليلة وراء أخرى ، يتجه إلى الناحية المقابلة ، تعرف من غطيطه أنه راح فى النوم .

ما رأته لم يدر فى بالها ، ولا تصورته . باسم حبيب قلبها ، يهب الحب والإشفاق والتعاطف .

تبينت همس الصوت فى ندائها على باسم . أعادت النداء بصوت أعلى ، اتجهت بنظراتها - ربما لتتخلص من الارتباك - إلى النافذة المطلة على البحر . النوارس سحابات صغيرة ، متطايرة ، وقبعات صيادى السنارة تعلو الأجساد المختفية ، أسفل الكورنيش الحجرى ، والحرارة تتصاعد فوق المياه بتموجات مرتعشة ، والرطوبة محملة برائحة الملح والطحالب والأعشاب .

أهملت محاولة باسم عدل ثيابه :

- البنت تحبك ، فاحرص عليها !

وهى تدفع أمامه طعام الإفطار :

- عرفت لماذا لم تعد تطلب حواديتى .

ودارت قلقها بابتسامة فاترة :

- اكتفيت بحواديت مى !

واكتست ملامحها جدية :

- النجاح بتفوق شرط أبيك لكى تظل معى !

الأيام متشابهة ، كتوالى أيام الصيف . لم يعد ممكناً أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه .

قالت فاطمة :

– هل تظلين سجينة هذه الشقة ؟

وتكلمت عن اقتصار حركتها على حجرات الشقة والصالة والمطبخ والحمام ، والجلوس وراء النافذة المطلة على البحر .

– تعيشين فى الإسكندرية .. رأيتها ؟

– نزلت مع محرم مرات كثيرة .

استطردت فاطمة فى نبرة مشفقة :

– آخرها السلسلة أو سراى رأس التين .

وأخلت للإشفاق ملامحها :

– الدنيا واسعة .

أظهرت الدهشة :

– أتمشى على شاطئ البحر ؟!

مدت فاطمة يديها كمن تدفع خطراً :

– مقامك محفوظ !. ما أشير به أن تنزلى فى مشاوير قريبة .

تنبهت إلى أنها ـ منذ فترة بعيدة ـ تجلس على الكرسى نفسه ، تطل من النافذة إلى أفق البحر .

مجرد أن تطل على البحر ، ترنو إلى آفاقه اللامتناهية ، يداخلها الشعور بالأمان ، ليس ثمة ما يضايقها ، أو يثيرها .

بدت فاطمة شخصاً مناسباً ، تتبادل معه الأحاديث ، ما تريده هو الفضفضة ، لا تميل إلى من يضايقها بالأسئلة ، والتفتيش عن المعانى الغائبة ، وإقحام الذات ، حتى فى المشكلات التى قد لا تخصها .

ما أثار قلقها أنها كانت تشعر ـ في داخل الشقة ـ بالحرية ، وإن ناوشها شعور ـ لا تدرى بواعثه ـ بالوحدة .

تحددت دنياها في هذه الشقة ، تطل من النافذة على البحر ، والشارع الفاصل ، ومدى الرؤية من الناحيتين .

تعرف أن حديقة المنشية قريبة . تسير إلى بناية الجندى المجهول الرخامية ، تميل إلى حيث الحديقة . هذا هو الطريق كما تذكره في عودتها إلى البيت . شقة هناء قريبة ، تطل على البحر من زاوية ضيقة ، منفذ بين عمارتين ، الشارع به دكاكين وزحام ، لكنها لا تعرف موضعه ، ولا تبينت ما حوله .

أقسى الأمور أن تصبح وحيدة ، لا تجد من تكلمه ، تأخذ منه وتعطى ، تبوح بما في نفسها .

غالبت تأثرها وهى تقول لباسم في التليفون :

– نسيت هذا الصباح ، فأعددت شاياً لى ، ولك .

وسرت في صوتها ارتعاشة :

– نسيت أنك لم تعد معى !

مشاعر متباينة تتماوج في صدرها بانقباض لا يفارقه . كأن الحجرة حاصرها ، تطبق عليها ، تمتد يداها ـ بتلقائية ـ إلى جانبيها ، كأنها تريد فع الجدران ..

ما يؤلمها تلاشى الأحلام عقب استيقاظها ، كأنها لم تكن ، تعجز عن استعادتها ، أو بعض قسماتها . الكابوس يظل فى الذاكرة ، تناوشها ملامحه القاسية ، ترويه لفاطمة ـ تطلب تفسيره ، أو أنه مجرد هواجس لا معنى لها .

قد تصحو ، دون أن تدرى إن كان ما رأته ، أو عاشته ، قد حدث بالفعل، أم أنه كابوس ؟

يداخلها ما يشبه الغيرة ، حين تتكلم فاطمة عن نومها مهدودة الحيل ، لا تزورها أحلام ولا كوابيس ، حتى تستيقظ على ترامى تسابيح ما قبل أذان الفجر من أبو العباس .

ربما أنصتت إلى أحاديث فاطمة عن أحوال ابنتها التى صار لها ولدان ، ورسائل ابنها من البلد الخليجى .

لم تعد الخادمة القديمة ، هى الآن صديقة ، تأخذ وتعطى ، وتبدى الرأى، وتجلس جوارها إلى المائدة ، وأمام التليفزيون ، وتنظر من النافذة المطلة على البحر .

فاجأتها فاطمة بالقول :

– لماذا لا تنزلين إلى السوق ؟

ثم فى نبرة موضحة :

– تشترين بنفسك ما تريدين .

انتزعت ابتسامة :

– أنا ؟!

– هل تظلين حبيسة الشقة طول العمر ؟!

وهى تدارى توترها :

تبوح لفاطمة بكل ما فى نفسها ، لا تخفى شيئاً ، حتى ما تتذكره من أحلام ، حتى أحلام اليقظة ، مجرد البوح ، لا تطلب الرأى ولا النصيحة . قد يداخلها حزن لغير سبب ، يثقلها بالتوقعات القاسية ، تتجه إلى فاطمة بملامح متقلصة ، وعينين دامعتين :

– لا أريدك معى الآن .. أريد أن أبكى !

كانت قدماها تطآن الأغصان المتناثرة ، فى الممر المغطى بالأشجار المتكاثفة . طالعها ـ فى مدى الرؤية الشاحبة ـ وجه له ملامح أليفة ، كأنها رأته من قبل ، وإن لم تعرفه . فى اقتراب خطواته ، تبدلّت الملامح ، بدت كمسخ شائه الخلقة ، تنتهى يداه بمخالب طويلة ، وعيناه تصدران شرراً ، والدماء تسيل على جانب فمه الواسع . تلاحقت صرخاتها باقتراب المسخ ، أنقذتها هزة فاطمة لكتفيها .

انتفضت لتروى ما حدث ..

نطقت عينا فاطمة بالتوجس ، وإن ربتت ركبتى نجاة مهونة :

– خيراً إن شاء الله .. نتائج الأحلام عكس ما نراه !

ظلت الكوابيس تقلق نومها ، لم يكن فيها من تعرفهم ، لا محرم ولا هناء أو باسم أو رامى ، لا أحد حتى من أهلها فى دمنهور ، أو جيران البيت . اختلاط ملامح يصعب عليها أن تتبينها .

تكررت الكوابيس فى ليال تالية ، متقطعة ، متلاحقة ، كأنها تنتظر حتى تذهب فى النوم ..

تصحو على طرقات وضربات وأشباح وأطياف ومردة وغيلان وصرخات وزئير وعواء ونداءات ، ورءوس حيات وأفاعى ، وأعين تطلق شرراً ، وأفواه تقطر دماً ، وألسنة متدلية كالأسياخ ، وأظافر طويلة متداخلة ، ومخالب ، وكائنات لا تعرفها . يبين على ملامحها ـ حين تصحو ـ ما عانته فى نومها .

الطابق الثالث ، اعتادت صوت طشيش تقلية الملوخية ورائحتها [ألا يطبخون سواها ؟] ، ترنو - بعفوية - فى البسطة الأخيرة - إلى الطابق الرائع ، والسلم الحديدى ، المفضى إلى السطح .

ألفت الكلام ، الأخذ والرد والفصال والسؤال والجواب ، مع الباعة والمتعاملين مع الشقة : كشاف النور ، المحصل ، الباعة ، البواب ..

لاحظت الحياة من حولها :

الجيران ، والطائرات الورقية ، وانطلاق السيارات ، والجالسين على الكورنيش ، والباعة ، وصيادو السنارة ، والطراحة ، والجرافة ، والبلانسات المتناثرة فى الميناء الشرقية .

تستعيد - فى وحدتها داخل البيت ، أو وهى تجلس إلى فاطمة ، أو إلى باسم [عاد إليها] ومضات ، نثارات من المشاهد ، التقطتها الذاكرة فى المشاوير بين البيت والأماكن التى ترددت عليها ، الأسواق والشوارع والحوارى والجوامع والمقامات والأضرحة وشاطئ البحر وحلقة السمك : موكب عروسين يدور أمام باب أبو العباس .. قط - فى فمه سمكة - يجرى ، بقفزات سريعة ، خارج الحلقة .. جرسون قهوة فاروق يفرش نشارة الخشب على مربعات البلاط .. سقوط حرف من العبارة الإنجليزية أعلى نادى اليخت .. عجوز تلصق شفتيها بالإطار النحاسى المحيط بمقام على تمراز ، وتبكى .. مرجيحة خالية فى سوق العيد ، تحدث صريراً باندفاع الهواء .. امرأة أمسكت بطفلها من رسغه وهو يتعثر فى إثرها .. مشاجرة بالأيدى بين نسوة فى شارع الأباصيرى .. فتاة تميل على منشر غسيل ، تفرد الملابس المبتلة ، وتثبتها بالمشابك .. صبى حلاق فى إسماعيل صبرى مشغول بكنس بقايا الشعر المتناثرة على الأرض .. عرب

– لا أعرف ما فى نهاية الشارع !

فوتت فاطمة الملاحظة :

– تحتاجين حذاء جديداً ..

ودارت ابتسامة فى كمها :

– أحذيتك موضة قديمة !

– احتجت إليها للسفر إلى دمنهور ، أو للتردد على الطبيب .

اخترقت زحام سوق راتب : علت النداءات والمساومات والشتائم ، تلاصقت سيارات النقل وعربات الكارو وعربات اليد ، فوقها ، والمقاطف والسلال وأقفاص الدجاج والفاكهة وكراتين البيض والجبن والسجق المتدلى كضفائر الشعر على واجهات الدكاكين ، وأطباق السمان والعصافير ، وعربات الطحال المشوى ولحمة الرأس والممبار وحمص الشام والبليلة والكشرى . تكومت ـ أسفل الرصيف وفى النواصى ـ أوراق ممزقة وبقايا خضروات وفاكهة وسمك ، تختلط روائحها برائحة الشواء والسمك المقلى والفلافل والبخور والعطور والدخان المحترق ، وتترامى ـ من موضع قريب ـ أصوات دق العطارة .

غادرت الشقة ـ فى الأيام التالية ـ تشترى لوازمها بنفسها ، بمفردها ، أو بصحبة فاطمة . يطالعها ـ عند العودة ـ صف البنايات المتساوية الطوابق والارتفاع ، والشبابيك العالية ، وإن اختلفت الشرفات والمقرنصات والنقوش والزخارف الجصية .

تميز باب البيت من الدكان المغلق إلى يساره [عرفت أنه مخزن] ، تدفع الضلفة الحديدية ، تستند إلى الدرابزين الخشبى فى صعود السلالم إلى

هناك دنيا حقيقية خارج البيت . الدنيا الحقيقية خارج البيت .

غالبت التوتر فى صوتها :

ـ الإسكندرية جميلة بالفعل .

كانت جالسة إلى نفسها ، وعيناها تتجهان ناحية البحر . تترامى ـ فى هدأة الليل ـ أصوات خافتة ، متقطعة ، لاحتكاك إطارات السيارات فوق الأسفلت ، صياح طائر ليلى ، هدير الأمواج فى اصطدامها بالمصدات الإسمنتية .

أغمضت عينيها ، وأسندت رأسها إلى الكرسى ، وتنهدت :

– ما أسخف الانتظار !

يد على ناصية شارع سوق السمك القديم ، رص فيها البرتقال فى شكل هرمى .. طائرة ورقية ملونة بين بنايتين .. أولاد يلعبون الكرة فى زقاق جانبى ..

صحبها باسم إلى سطح البيت . ظل إلى جانب الرجل حتى أتم إصلاح " إيريال " التليفزيون .

نزل تسبقه الدهشة :

ـ الإسكندرية من فوق جميلة .

اجتذبها المشهد الفسيح ـ فى تنقلها بين جدار السور ـ آفاق المياه المحيطة بثلاث جهات : المينا الشرقية ـ من زاوية النظر ـ كأن البيت داخلها ، اختفى الطريق والكورنيش الحجرى والمصدات الأسمنتية والشاطئ . ثمة قوارب متناثرة بين لسان السلسلة وقلعة قايتباى ، وفى السماء أسراب طير، تنطلق ، وتعود . فى الناحية المقابلة بحر مختلف ، بواخر ضخمة وأرصفة ومخازن وورش وحاويات ورصات بضائع ومداخن وصوارى ورافعات وأوناش وبالات قطن ولوطات أخشاب وأجولة وبراميل وسيارات نقل وعربات كارو والمسارات الثعبانية لقطارات البضاعة . خليج الأنفوشى ـ رافقت محرم فى السير على شاطئه ـ يصل فى انحناءة سراى رأس التين ، بين الميناءين الشرقى والغربى ، تختفى الأمواج والبلانسات وورش المراكب والكبائن والجزيرة الصخرية ، وراء البنايات والمآذن ـ أعلاها مئذنة أبو العباس ـ فتكتفى بالتصور .

البيت ، بما يحيط به من الجهات الثلاث ، أشبه بجزيرة فى قلب البحر . تبدو الشوارع أوردة بين البنايات والمآذن والأبراج وأطباق الفضائيات .

– ماذا تشربان ؟

– سأعد شاياً .

– لن تعرفى موضع الشاى والسكر ..

ودارت ارتباكها بابتسامة فاترة :

– أنتم ضيوفى !

ضغطت على فخذ هناء ، واتجهت إلى المطبخ :

– أنا أعرف موضع كل شيء !

قال رامى وهو ينظر إلى ما حوله :

– هل تستطيعين الحياة بمفردك ؟

تتابعت دقات الساعات فى مواضعها داخل الشقة ، تلاحقت إلى حد التداخل ، تتمايز فى نغماتها وارتفاع أصواتها وخفوتها .

الساعات الكثيرة الموزعة فى الشقة ، على الجدران ، وفوق قطع الأثاث ، تشى بحب محرم لاقتنائها ، ساعات ببندول ، ساعات مستديرة ، ساعات رقمية ، ساعات لها أصوات الطير ، ساعات ذات دقات كل ساعة ، وكل نصف ساعة ، وصامتة ، منبهات . كلما اجتذبه تصميم ساعة ، قلبها بين يديه ، إن اطمأن إلى جمال التصميم ، بادر بشرائها ، يبحث لها عن موضع فى الشقة ، إلى جانب ما سبق له اقتناؤه .

لم تطق اللهجة العابثة فى صوت رامى .

أضاف دون أن ينتظر إجابتها :

– عرفت أن باسم يؤدى الصلاة فى أوقاتها .

فى نبرة حيادية :

– نصحته بهذا .

حين أغلقت باب الشقة عليها ، تصورت أنها لن تزور ، ولن تزار . ليلة لحديقة مثلت فاصلاً بين ما كان ، والأيام القادمة .

عرفت الطريق إلى شارع الميدان ، وسوق راتب ، وميدان المنشية . ربما امتدت مشاويرها إلى أول شارع سعد زغلول ، تشترى ما تحتاجه ، وتعود إلى البيت . ميزت الطريق بدكاكين ولافتات وباعة ، فلا تميل إلى شوارع أخرى .

قلدت فاطمة فى فصال البائع ، تذكر رقماً أقل من الرقم الذى يعرضه لبضاعته ، قد لا تعرف الثمن ، لكنها تعرض ثمناً أقل ، تتوقع ـ كما اعتادت فى فصال فاطمة ـ أن يخصم البائع ما يحضها على الموافقة ، يقتحمها إحساس بالسعادة .

دفعتها الجرأة ـ ذات صباح ـ فمالت إلى شارع الفلكى . اشترت حذاء على المودة . فى بالها ملاحظة فاطمة عن أحذيتها التى لا تساير الوقت .

تغلق باب الشقة ، تجلس على أقرب كرسى ، تغمض عينيها ، تحاول أن تستعيد نفسها .

تابعت نظراتهما المحدقة فى الشقة . لم تشر إلى تخلى هناء عن الثوب الأسود . أرجعته إلى امتثالها لكل ما يريده رامى .

لحقت ـ بإشارة ـ تهيؤ هناء للدخول إلى المطبخ :

– البحر أمامها .

ثم أظهر التصعب :

ـ فى شقتنا ـ كما تعرفين ـ يمكن أن تتمشى عينا الجار داخل شقة جاره!

هل تصارحه بأنها تشعر فى داخل البيت براحتها الحقيقية ، لا نظرات متطفلة ، ولا أسئلة ؟

– لما تركت الشقة كنت أشفق على نفسى من التذكر !

وسرى فى صوتها ما يشبه الحشرجة :

– نحن نظل فى فرارنا من الخوف ، ثم نتبين ـ بعد أن تتعبنا المطاردة ـ أن الخوف فى داخلنا .

ثم استدارت . صارت فى مواجهته :

– مجموع ما أمضيته خارج الشقة فى اثنتين وأربعين سنة لا يزيد عن بضعة أشهر !

استطردت وهى تهز يديها :

– لا أخاف الحياة هنا . ليس لمحرم فى حياتى سوى الذكريات الجميلة !

بدت فى هيئة من اتخذ قراراً :

– لست فى حاجة إلى المداراة . أنا أعرف ما تريده .

ورفعت إلى هناء عينين ملتمعتين :

– الشقة هى حياتى مع أبيك ..

وكورت قبضتها :

– هى وطنى .

- ليتك تنصحينه بالابتعاد عن الجماعات الدينية .

رمقته بنظرة مستفهمة :

- ماذا تقصد ؟

- ألا تعرفين الجماعات الدينية ؟!

وهى تحاول كتم مشاعرها :

- أعرف أن الصواب فى أداء باسم فروض دينه .

قال كالمتنبه :

- إقامة باسم معك جاءت فى وقتها .

واصطنع ابتسامة متوددة :

- شقتنا - كما تعرفين - حجرتان وصالة ، يا دوب تكفى رجلاً أعزب !

ووشى صوته بمرارة :

- حتى ملفات الأوراق المهمة أراجعها فى القهوة بدلاً من البيت . عملى فى البيت كله أوراق !

ضايقه بطء استجابتها . لجأ إلى الكناية والتورية ، والكلمات التى تعنى ما يريده . لكن ملامح وجهها ظلت بلا صدى . غاب الانفعال ، ونظرات التصديق ، أو التكذيب .

تابعت - بتمازج الحيرة والضيق - تقليبه فى كل ما يصادفه . حتى الزهور المجففة فى ركن الصالة ، رأته يرفعها من الفازة الخزفية ، ويمد أصابعه يتحسس داخلها .

اتجهت نظراته ناحية البحر :

- يضيف إلى قيمة الشقة أنها غير مجروحة .

ومد ذراعه فى أداء مسرحى :

وأنتظره ، نسيت ما قد يمثله رحيلى فى حياتك . وقال : لو أنى فطنت إلى الحيرة التى ستعانيها بعد موتى ، ما حرصت على بقائك فى البيت . وقال : لم يعد الحدس يكفى للتفرقة بين حَسَنِى النية وَسَيِّئِى السلوك . وقال : عرفت أن الملامح المسالمة ، الظاهرة ، قد تخفى نفساً تواقة إلى الشر . وقال : لم أدرك - إلا بعد النهاية - أن الحياة بكل هذا التعقيد . وقال : كم هو مؤسف أن يتعلم المرء بعد أن ينتهى كل شيء . وقال : حتى الخوف نستطيع - باقتحامه - أن نتغلب عليه . علت شفتيه ابتسامة : من حقك أن تنظرى إلى البحر الذى تحبينه دون توتر أو قلق .

نصحها بأن تتردد على مقامات الأولياء ، لا تكتفى بمقام على تمراز ، بحرى حى الأولياء والجوامع والزوايا والصوفية والموالد والأذكار والأدعية والابتهالات والأهازيج والتواشيح والتقرب إلى الله .

هزت رأسها بالحيرة .

عرف ما تعانيه . قال :

– طول عمرى أتردد على المساجد للصلاة وحدها .

أردف لاتساع عينيها بالدهشة :

– إذا وجدت فى زيارة مقامات الأولياء راحة ، فلا بأس .

واحتضنها بنظرة مشفقة :

– لا بأس من أن تصحبك فاطمة ، تعرف الأماكن جيداً .

تكلم عن مد مسافة المشوار من ميدان المساجد إلى حلقة السمك ، ثلاثمائة متر أو أقل ، يؤنسها عجائز يرفون الغزل فى انحناءة مرسى المراكب . الصباح الباكر أنسب المواعيد للاختيار والشراء ، تشترى أنواع السمك التى تحبها ، وتجيد شيها ، وقليها ، وإدخالها الفرن فى صينية بطاطس .

ربطت بين ما تراه والكوابيس التى تلاحقها . أرجعته - فى اللحظة التالية - إلى ثبات صورة رامى فى ذاكرتها .

لم تشعر - منذ رحيل محرم - بهذا القدر من الخوف ، خوف لا تدرى مصدره ، وإن بدت سحنة رامى - فى بالها - شديدة الوضوح .

جلس إلى المائدة الخالية من الأوراق والكتب والأقلام وكوب الشاى بالحليب . فركت عينيها ، ثم أعادت التحديق : هو هو محرم بالروب المسدل على البيجامة ، والطاقية فوق الرأس ، والخُف المغربى ، والملامح الهادئة ، يجتذب نظراته من النافذة المطلة على البحر ، إلى حيث تقف على باب حجرة النوم .

أشار ناحية الكرسى المقابل .

جلست فى صمت ، كأنه قد أخضعها لإرادته .

فطنت إلى أنها يجب أن تبدى الخوف . تشهق ، تصرخ ، تختفى من أمامه على أى نحو ، لكنها جلست دون أن يتحشرج صوتها بمجرد الدهشة، كأنه يقاسمها الحياة فى الشقة كما فى الأيام البعيدة .

كم أربعون يوماً مضت منذ أطفأت نور الشقة فى أربعين وفاته ؟!

قال لها إن كل شيء يجب أن يظل كما كان ، لا صلة لرحيله بتغيّر حياتها . وقال : أعرف ما تعانين ، لاحظت تبدل رامى عما أظهر لى فى البداية ، لم أتصور أنه سيبلغ هذا الحد . وقال : لا تلومى هناء ، نحن لم نعلمها كيف تدافع عن نفسها . وقال : كان الموت يشغلنى ،

عانت الفقد والوحدة ، وعرفت الفرجة والتأمل والصداقة والدهشة والسؤال والفصال وقضاء الأوقات بالوسيلة التى تختارها ، والسير - بمفردها - فى الشوارع المزدحمة ، وزوال الخشية على محرم من التوقعات القاسية .

تصورت أن موت محرم يعنى موتها هى ، ترحل برحيله ، لكن الحياة أخذتها ، ولم تعد الأسئلة تناوشها .

قال لها محرم - قبل رحيله - مداعباً : عندما أذهب لا تتأخرى فى اللحاق بى .

لكنها تأخرت حتى النسيان .

بدا كل شيء بعيداً ، كأنه لم يحدث .

رنا إليها بعينين مشفقتين :

ـ مادام يتاح لى زيارتك ، اعتمدى على نصائحى .

ثم وهو يتهيأ للقيام :

– أعرف أنك قد لا تستطيعين زيارتى فى مقابر المنارة .

وأومأ برأسه :

– سأحرص على زيارتك بين وقت وآخر .

انبثق السؤال ـ فى داخلها ـ كالمفاجأة : من يعنى بموتها ؟

كان صوتها قد ارتجف بالتصعب :

– تمنيت أن يدفن فى دمنهور .

قال رامى فى لهجة مستغربة :

– اشترى مقبرة فى الإسكندرية ليدفن فيها .

تمنت أن تسبق محرم فى الرحيل ، لا تطمئن إلى خضوع هناء لسيطرة رامى ، لا تثق أنها تفعل ما يجب فعله ، حتى تدفعها إلى جوار محرم .

أوصت فاطمة ، اشترت لها من مكتبة بسعد زغلول ، خريطة لشوارع الإسكندرية . ثبتتها على جدار المطبخ .

جرت بالقلم على امتداد طريق الكورنيش حتى انحناءة الطريق إلى ميدان المساجد ، وإلى حيث كان يصحبها محرم جوار الشاطئ إلى الحلقة ، وورش المراكب ، حتى سراى رأس التين .

خطت على الشوارع المفضية إلى شارع الميدان وسوق راتب . استعادت ـ فى تأملها لحديقة المنشية ـ ما جرى فى الليلة القاسية .

لم يعد اتصالها بالعالم الخارجى ما ترويه فاطمة عن ذلك العالم . نزلت إليه ، شاهدته ، تعرفت إلى قسماته وملامحه .

ظل رامى صامتاً . لم يكن محرم يأذن بتخطى الحاجز غير المرئى الذى وضعه بينهما . لا يتطرق - فى أحاديثهما - إلى ظروفه الشخصية ، ولا يميل إلى عبارات المباسطة أو الدعابة أو التلميز ، ويحرص على اختيار كلماته درءاً للمعانى المغايرة .

خمن رامى أنها لم تلتقط رسالته ، وأنها أفقدته اتجاه الحديث بالكيفية التى أعدها . لكى يخفف من وقع ما ينوى قوله ، استعاد ابتسامته المتوددة:

– نحن أهلك .. لماذا لا نسكن هنا ، وتأخذين شقتنا ؟

هل ضاقت به الدنيا ، فيحاول إبعادها عن البيت الذى لا تتصور نفسها بعيدة عنه ؟

تمازجت لهجتها المتسائلة بالغضب :

– لماذا أشترى أو أبيع ؟ أنا أسكن شقة رخيصة !

– أنت لا تحتاجين إلا إلى مساحة الكرسى خلف النافذة ، لتنظرى إلى البحر .

تدرك أن هناء تخالفه فى نفسها ، تعجز عن مناقشته ، أو مخالفته ، فتصمت .

قالت نجاة :

– هل أترك الشقة التى تؤوينى ؟

قال رامى :

– مجرد انتقال من شقة واسعة إلى شقة أضيق قليلاً .

قالت :

– ماذا يجرى للسمك لو أنه يخرج من الماء ؟

وزوت ما بين عينيها :

ماذا يعنى بتلميحاته ؟

هى لا تبرئه من هدف لهذه الزيارات . تقاربت بما يريب ، يقتصر الكلام على الشقة الضيقة ، والغلاء ، والإيماءات التى تستفز الفهم ، يتكلم ، ويتكلم، وهناء ساكنة كأنها تعرف ما يريد أن يقوله . تهمل نظراتهما المتواطئة ، مع همسات تعرف أنها تقصدها .

يضايقها تحركه فى الشقة ، البحث فى الثلاجة عما يأكله ، إعداد طعام فى المطبخ ، إغلاق التليفزيون بحجة سخف برامجه ، التقليب فى المكتبة ، أى شيء ، كل شيء ، يوصل إليها الإحساس بأنه فى بيته . كل ما فى البيت حق له ، هو مسكون بالفضول والجرأة والميل إلى الاقتحام .

قال رامى فى لهجة متواطئة :

- أنت سيدة وحيدة ، ونحن ثلاثة أشخاص .

ظلت على صمتها وملامحها الساكنة . خشيت أن تقول ما تؤاخذ عليه ، ما يلتقطه رامى ، يحذف منه ، ويضيف إليه ، يفاجئها بما لم تقله ، ولا دار فى بالها .

قال رامى :

- تمنيت لو أن الأجانب ظلوا فى مصر .. كنت سألجأ إلى تعاونهم فى أعمال كثيرة .

رفع محرم رأسه من بين الأوراق :

- ما أعرفه أن الانفتاح أعاد كل شيء إلى ما قبل البداية !

ووشى صوته بسخرية :

- تحققت الفوائد للأجانب ، وللشطار من المصريين !

ثم عاد إلى ما يقرأه :

فوتت الملاحظة :

– أمضيت الليل فى حديقة المنشية .

اكتفت هناء بتخلل شعرها بأصابعها ، وظلت صامتة .

مجرد السير من بيت هناء إلى الحديقة أخافها ، الظلمة والصمت والوحشة ، والنظرات المتسللة والمقتحمة ، وإحساس المهانة الذى أربك خطواتها .

كان مفتاح الشقة فى حقيبتها . لم تكن تعرف موضع البيت ، ولا كيف كانت تتصرف ، استعادت ـ كالحلم ـ رقم تليفون فاطمة .

انتفضت واقفة . ضغطت على الكلمات :

– زوجك يصر على أن يعاملنى كعجوز مخرفة !

قال لها الطبيب ـ فى آخر زياراتها له ـ ابتعدى عن المضايقات النفسية .

هل كان يعلن نصيحته لو أنه عرف ما يفعله رامى فى حياتها ؟!

تقلصت ملامحها بالغضب :

ـ كنت قد حمدت الله أنى لن أراه ثانية !

أشارت هناء بأصابعها المضمومة إلى نفسها :

– لا تريدين رؤيتى إذن ؟!

– أنت تتكلمين على هواه ، ولا تفعلين إلا ما يأمرك به !

وشوحت بيدها ناحية الباب :

– اخرجا من حياتى !

فز فى جلسته :

– تكلمين ابنتك !

– يموت .. أليس ذلك ؟

وربتت صدرها :

– هكذا أنا .. أموت لو طال ابتعادى عن هذه الشقة .

ثم وهى تحيط المكان بامتداد ساعديها :

– أستطيع ـ مغمضة العينين ـ أن أتنقل بين الأثاث ، دون أن أحرك قطعة واحدة من موضعها .

انتبهت إلى ما دفعها للتلفت ، التقطت عيناها تنقل وقفات محرم بين الطرقة وحجرة المكتب وباب حجرة النوم .

علا صوتها فى تأكيد :

– هذه الشقة هى كل عمرى .. لماذا أتركها ؟

– من أجلنا .. من أجل باسم .

عمّق من استيائها لهجة عابثة تتخلل صوته :

– باسم يقيم معى .

رمقته بنظرة استياء ، كمن تبلغه أن كلماته لن تثيرها ، لن تدفعها إلى رد فعل من أى نوع .

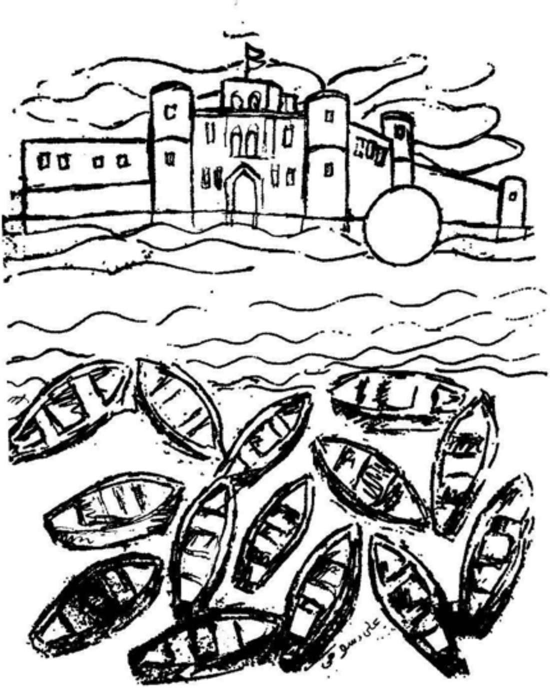
هل تبلغه أنها لا تعيش بمفردها ، وأن الشعور بالوحدة غيبته زيارات محرم التى تسأل ، وتناقش ، وتبدى الرأى ، وتشغل الوقت بالمؤانسة ؟

اتجهت لهناء بنظرتها المستاءة :

– أنت لم تسألينى أين ذهبت بعد أن طردتنى ؟

قالت هناء :

– أنت تركت الشقة .


علي دسوقي

تحول نزوعها لتضخيم عيوبه ، وشعورها بالضيق من كلماته وتصرفاته ، إلى كره يصعب أن تخفيه ، هو سيئ من ألفه إلى يائه ، أميل إلى التآمر والدس ، ويخلو من المشاعر الإنسانية .

رمته بنظرة مشتعلة :

- هناء مجرد ببغاء يردد ما يسمعه !

أومأ رامى لباسم .

ربتت نجاة صدره وهى تهم بإغلاق الباب :

- تمنيت أن تكون آخر من تراه عينى فى الدنيا !

صعدت الدرجات الرخامية . مضت ـ بإشارة من يد الرجل الذى وارب ـ باليد الأخرى ـ باباً زجاجياً من ضلفتين ، إلى حجرة على اليمين .

لم تقدم نفسها بصفة ما . اكتفت بذكر اسمها الأول «نجاة» مسبوقاً بكلمة مدام . زال ارتباكها حين أهملت مديرة الدار سؤالها فى أى شيء ، خمنت أنها ليست الزائرة الوحيدة للدار دون سبب .

المديرة فى نحو الخامسة والأربعين ، أبرز ما يميزها عينان كحيلتان ، واسعتان ، وأسنان فلجاء ، وبشرة سمراء صافية ، غطت شعرها بحجاب ، عقدته من الجانب بدبوس ذهبى . تتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، تنتهى بمصحف ذهبى صغير .

تحدثت المديرة عن الحجرات المشمسة ، جيدة التهوية ، والحديقة الواسعة ، والنوافذ المطلة على البحر ، والرعاية الطبية والإنسانية . ولونت صوتها :

– إنهم يسعدون بزيارات الأصدقاء .

جلست «نجاة» فى الشرفة المطلة على البحر , سألت ، وناقشت ، واستفسرت عما لم تعرفه .

أزعجها قول سيدة غطت البقع البنية وجهها ويديها :

– يزورنا الكثير من الناس ..

ورفعت كتفيها ، ولوت شفتها السفلى :

– ليسوا كلهم أهلنا ..

وخالط صوتها حزن :

– أشعر أنهم قدموا للفرجة علينا كما يتفرجون على حديقة الحيوان .

أضافت فى حزنها :

زارت ـ بصحبة فاطمة ـ داراً للمسنين .

رفضت فاطمة فى البداية ، تحدثت عن الأسرة والعيب والتقاليد .

ربتت كتفها :

- لن أتصرف بدون موافقتك .

قالت فاطمة :

- لكنك أصغر من أن تقيمى فى دار المسنين .

تمازج فى عينيها الألم والحيرة :

- إنهم يريدون الشقة .

ضربت فاطمة صدرها براحتها :

- تقتلين نفسك من أجلهم ؟!

وهى تغمض عينيها :

- إذا لم أحقق لهم ما يطلبون ، فأنا أكرههم !

وتهدّج صوتها باليأس :

- ليأخذوها !

اجتذبها الموقع المطل ـ من شارع جانبى ـ على شاطئ ميامى ، البحرالذى تحبه .

دخلت من الباب الحديدى الضخم ، واتجهت إلى المبنى ـ ذى الطابقين ـ فى المواجهة ، عبر طرقة من الفسيفساء ، على جانبيها أعمدة إنارة وأحواض زهور وأشجار قصيرة ، متباعدة .

والأعمام والأخوال ، والكثير من أهلها ومعارفها . حتى شقيقها الأصغر اكتفى فى بلد الغربة البعيد ، برسائل تباعد وصولها ، ثم اقتصر على مكالمات تليفونية ، تهنئ بالمولد النبوى ، ورمضان ، والعيدين . تخشى ـ عند عودتها ـ ما لا تعرفه ، ما تغيب عنها صورته . سيرهقها إحساس الفقد وسط الجماعة التى تعرفها ، أشد مما يرهقها داخل الشقة .

- يؤلمنى أن من ننتظرهم لا يأتون .

ثمة شيء تصاعد فى داخلها ، لم تستطع إدراكه تماماً ، لا تعرف ماذا تريد ، ولا ماذا تفعل . اقتحمها شعور بغياب الأمان ، وتوقعت ما لم تتبين ملامحه .

قالت فاطمة :

- ست نجاة .. لماذا لا تتزوجين ؟

شهقت وهى تشير إلى نفسها :

- أنا ؟!

- لن تفعلى ما يغضب الله !

وهزت رأسها فى تأكيد :

- الزواج ثانية حق للأرملة والمطلقة .

شوحت بيدها :

- أحتاج لمن يرعانى لا لمن أرعاه !

غمغمت كأنها تكلم نفسها :

- أنا أحيا من أجل باسم .

لم تعد قادرة على التفكير فى شيء محدد . اتصلت اللحظات ، لا تختلف - فى رتابة أيامها - لحظة عن الأخرى .

ومض السؤال فى ذهنها : لماذا لا تعود إلى دمنهور ؟

هزت رأسها بالنفى .

منذ تركت دمنهور تباعدت زياراتها إلى المدينة فى ما يقارب الأربعين عاماً ، تبدلت الأمور ، فيصعب استعادة الأوضاع القديمة . رحل الأبوان

استطرد دون أن تغيب ابتسامته :

– ويظل رامى على انشغاله بتشمم رائحة النقود داخل الميناء !

وأبطأ فى نطق الكلمات :

– لا أوافق أن تدخلى دار المسنين .

ورفع حاجبيه فى استغراب :

– هل نحكم على أنفسنا بالموت ، لكى نيسر حياة من يعيشون بالفعل ؟!

نصحها أن تفطن إلى نفسها ، ولا تخضع للإيماءات المهددة . ذكّرها بأنه ترك لها ما يتيح لها العيشة الطيبة . إذا كان قد أخطأ لمّا تحمل العبء بمفرده ، فإن البداية الجديدة مسئوليتها منذ غيابه ، لابد أن تعى ما حولها ، وتحاذر ، وتجيد التصرف فى مواجهة تصرفات الآخرين .

هى الآن يجب أن تعتمد على نفسها فى كل شيء .

قال :

– قد تعوض الإرادة ضعف الجسد !

أعجب بنزولها إلى الطريق ، وذهابها إلى السوق ، وترددها على مقامات الأولياء ، والتمشى فى الشوارع .

نصحها أن تختار المواعيد المناسبة للنزول إلى الطريق ، فلا يضايقها أحد .

كتمت رغبتها ـ لم تتبين السبب ـ فى أن يصحبها إلى شاطئ البحر ، يغادران الشقة ، يهبطان السلم ، يعبران الطريق إلى المقعد الرخامى فى الجانب المقابل ، ينظران ناحية البحر ، ويتبادلان الكلام .

كان يزايل موضعه ، يختفى ، فى ما يشبه اختفاء الحلم الجميل ، تخلو نفسها مما يخيف أو يقلق ، تغمرها السكينة وهى تستعيد ما قاله ، تمر

اعتادت رؤيته ـ فى الموضع نفسه ـ على فترات متقاربة ، لا يختار موعداً فى ليل أو نهار ، وإن اقتصر حضوره على الأوقات التى تغيب فيها فاطمة ، كأنه يحرص على استعادة الأيام التى تبدلت برحيله .

وهو يبتسم :

– هل تأذنين لى أن أعوض ما قصّرت فى أدائه ؟

لم تعد تشعر فى وجوده بالعزلة . تهمس بالقول : أواجه مشكلة . يهز رأسه ، يستحثها على الكلام . تروى ما تعانيه ، يبدى الفهم ، أو يستوضح ، أو يسأل ، يعمق تعرفه إلى المشكلة ، يشير بالحل فور انتهاء روايتها ، أو يشرد فى التأمل قبل أن يعلن رأيه . حتى بعد أن يتركها ، يظل طيفه فى مخيلتها ، تستعيد الكلمات ، وتعبيرات الوجه واليدين .

قال : إن رحيله لا يعنى نهاية الدنيا . الناس ينامون ، ويستيقظون ، ويجلسون على المقاهى والحدائق وكورنيش البحر ، ويسيرون فى الشوارع ، ريطلون من النوافذ والشرفات ، ويصيدون ، ويخوضون فى المناقشات ، ويتخانقون ، وتعلو أصواتهم بالضحكات والنكات والشتائم ، ويتزاحمون على الأوتوبيس والترام ، ويركبون البحر ، ويستمعون إلى الراديو ، ويشاهدون التليفزيون ، ويترددون على المسارح ودور السينما ، ويلوذون بمقامات الأولياء ، ويحتفلون بالأعياد ، ويزورون المساجد ، ويتابعون صيد الجُرافة ، ويشجعون فرق الكرة ، ويحلمون .



الساعات وهى جالسة على الكرسى ، خلف النافذة ، لا تتأمل مشهداً محدداً، إنما هى تسلم الشرود إلى ما بعد الأفق .

سكتت عن رواية جلساتها إلى محرم ، تبوح لفاطمة بما يشغلها ، وما تطلب فيه النصيحة ، زيارات محرم سرها الخاص الذى يقتصر عليهما . تلجأ إليه كلما واجهت مشكلة ، تسأله ، تناقشه ، يبدى الرأى .

تنزل فاطمة إلى السوق ، أو لزيارة ابنتها ، يملأ وجود محرم الشقة ، يؤنس أوقات النهار ، يوجه ـ بملاحظاته ـ تفكيرها وتصرفاتها .

لم تعد الكوابيس ـ وحدها ـ تأتى فى النوم .

ثمة أطياف نورانية وتلاوات وتسابيح وابتهالات ، ورجال نسبتهم إلى أولياء الله ، أنست بهم فى أحلامها ، لا يعلق من الأحاديث المتبادلة بينها وبينهم ما تستعيده ، أو تتذكره ، لكن المعنى الذى تصحو عليه يملأها بالسكينة يدفعها ـ فى اليوم نفسه ـ إلى زيارة مقام على تمراز أو أبو العباس ، تطيل الوقفة أمام الأعمدة النحاسية ، تقرأ الفاتحة ، وتطلب النصفة والمدد .

توالى رنين الجرس . رافقته طرقات بقبضة اليد . اختلطت أصوات فى الخارج ، وتشابكت ، ميزت تلاحق الكلمات فى صوت هناء ، ولهجة رامى الآمرة ، وصياح جودة البواب يعلو بما لم تتبينه .

لا تتصور أن يشارك باسم فى أذاها .

ترامى القول :

– ابتعدوا !

أدركت أن هناء وزوجها ينويان تنفيذ ما لمحا به فى البداية ، ثم أكدا المعنى فيما بعد ، يستعينان بآخرين لإملاء إرادتهما . يحطمون الباب ، يواجهونها بما لا يدور فى بالها ، و لا تقوى على رده .

تلفتت حولها .

بدا محرم واقفاً على مدخل الطرقة ، تطل من عينيه نظرة محرضة ، ومضة ، ثم اختفى .

قال فى آخر لقاءاتهما :

– لا تتراجعى ، افرضى إرادتك !

وملأت البسمة ملامحه :

– عشنا سنوات طويلة ، تصورت خلالها أنى أعرفك جيداً ، وأنى تزوجت أجمل امرأة فى الدنيا .

ولون صوته بنبرة متواطئة :

– عرفت الآن أن لزوجتى ما يفوق كل معانى الجمال !

عاودت التلفت :

لا أحد ، ولا شيء ، سوى الهدوء الساكن فى داخل الشقة ، والأصوات المتشابكة فى الخارج .

غلبها الارتباك ، عجزت عن تدبر الخطوة التالية : هل تظل على صمتها ؟

لم تنتبه إلى الضربات التى تطرق الباب إلا بعد أن تلاحقت ، وقويت .

تعالى ـ بعدها ـ صوت جرس الباب .

متى تعود فاطمة من السوق ؟

حدست الزائر من ضغطة الجرس .

تأكدت من حدسها برؤية الطيفين الواقفين أمام الباب ـ وسط أطياف أخرى ـ ابنتها وزوجها .

هل يعيدان ما ألحا عليه فى زياراتهما السابقة ؟ .

لن تطمئن إلى استقرار حياتها ، مادام رامى يومئ بتلميحاته ، ويعد لما يصعب تخمينه ، أو تصوره .

رفضت مناقشة الأمر ، رفضت تبديل الشقة . ألفت الحياة فيها ، صارت جزءاً من حياتها . جاوز التلميح ، إلى المصارحة ، إلى الضغط والتهديد :

– من حق هناء أن تقيم فى شقة أبيها .

تبينت ـ فيما يشبه المفاجأة ـ أنها تخوض ـ بمساندة محرم ـ معركة لا تنتهى . لم يعد يشغلها إلا أن تفوز فى معركتها ، تظل فى البيت ، لا تتركه، مهما يحاصرها رامى بتهديداته .

أحست وهى تغلق الباب وراءهما ، أنها تأخرت فى تنفيذ ما كانت قد استقرت عليه .

لحظة واحدة ، فلا تخطئ ، حتى المنبهات الصغيرة علت أجراسها الرفيعة والمرتفعة الرنين ، المتقطعة والمتواصلة . صنع تلاقى الأصوات وتنافرها ، ما دفعها إلى التحرك - بعفوية - فى موضعها .

هل هو محرم ؟

لمحت النشابة مسنودة إلى ركن الصالة ، تنقلت نظراتها بين موضع النشابة ، والباب ، كأنها تقيس المسافة .

علا صوتها - من وراء الباب المغلق - بنبرة كالحشرجة :

- من ؟!

هل تصرخ بالاستغاثة ؟ هل تلجأ إلى التليفون ؟

شعرت أن عليها أن تواجه ما لا سبيل إلى تجنبه .

كانت النظرة المحرضة هى آخر ما رأته فى عينيه ، قبل أن يزايل المكان.

ترامى من البحر صخب غير مألوف فى هذه الأيام . الصيف يجعل الأمواج حصيرة ، تهدأ الكائنات والأشياء . صيادو السنارة يلقونها من مواضعهم فوق الكورنيش الحجرى والمكعبات الأسمنتية ، تصنع دوائر تتس، تضيق ، تغيب تماماً ، ينتظرون جذبة التقاط الطُعم ، حتى الطيور تحلق فى تراخ ، والأسماك تتقافز ، وتغطس إلى الأعماق القريبة ، الصافية ، والقوارب الصغيرة كأنها التصقت فى مواضعها ، يعمق إلقاء الطراحة وسحبها من الصمت السادر .

تعالى هدير الأمواج ، وهبوب الريح ، واختلاط صياح الطيور ، وأصوات أخرى - لا تعرفها - تترامى من داخل البحر ، وتشابك صافرات السفن ، وتلاطم سعف النخيل على امتداد الطريق ، وتلاحق دوامات رملية ، ترافقها تكسّرات ، وارتطامات على الأرض ، وفى الجدران ، كأيام النوات .

أدركت من الدوى الهائل والرذاذ الذى اصطدم بزجاج النافذة ، أن الأمواج قذفت مكعبات الأسمنت إلى الطريق ، وانعكس وميض البرق داخل الصالة ، وعلا ما يشبه الرعد ، واندلقت الأمطار كالسيل .

توقعت - لا تدرى كيف - من الصخب المترامى عبر النافذة ، ما يعينها على المواجهة القاسية .

تنحت لاندفاع العاصفة فى اتجاه الباب المغلق ، كومت وراءه ما لقيته من قطع الأثاث على جانبى الصالة ، وفى الطرقة ، والمشاية الصوفية الطويلة ، تصاعدت إلى قرب السقف ، صنعت باباً ثانياً ، أو جداراً .

أثار فى نفسها ما لم تعهده من قبل - وبما لم تستطع تبينه - انطلاق دقات الساعات المتباينة النغمات ، الموزعة فى الشقة ، كأنها ضبطت على

هـــذه الـروايــة

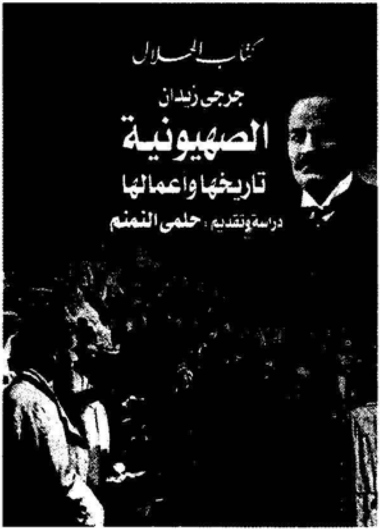
انطلاقا من مقولة طارق بن زياد المشهورة (وإن يكن بعض المؤرخين يشككون في صحة نسبتها إليه) وهو يحث جنوده على الصمود إذ ليس ثمة سوى البحر من أمامهم والعدو من خلفهم يستوحي محمد جبريل عنوان هذه الرواية الفاتنة التي ترصد - بدقة وصبر - تحولات جيلين أو أكثر وذلك من خلال وعي شخصيتها الرئيسية: نجاة التي فقدت زوجها - كان مستشارا في منظمة الصحة العالمية - ولكنها تعيش مع الذكرى في شقة مطلة على بحر الإسكندرية، وتلتحم أفكارها ومشاعرها بمن يحيطون بها: ابنتها هناء وزوجها رامي، وحفيدها باسم، وشغالتها - الآن صديقتها - فاطمة، وبوابها جودة، ولكن محرم زوجها يظل أكثر واقعية - في وجدانها - من كل هؤلاء.

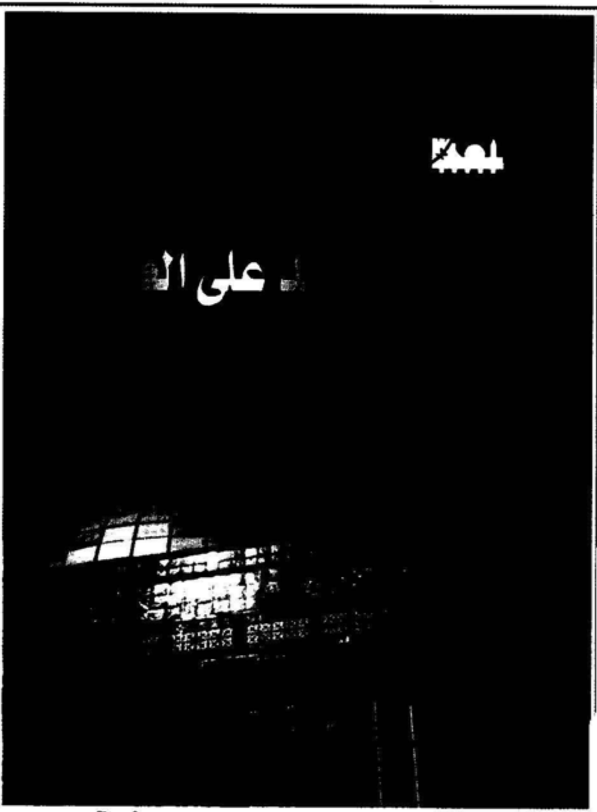
هذه - على إيجازها - رواية أجيال يأخذ كل جيل منها برقاب سابقة ويمهد للاحقة، وكأنما هي أمواج البحر المتعاقبة التي تطل عليها نجاة من نافذة شقتها، وصنعة الروائي هنا محكمة رهيفة وكأنما ينسج قطعة من المخرم بأنامل صنَّاع بارعة، ثمة قصد كامل في التعبير، دون زوائد أو فضول، وتوازن في رصد المشهد الخارجي والعالم الداخلي للشخوص، وحنان إنساني غامر يحيط به الروائي بطلته التي عرفت الوحدة بعد صحبة، والوحشة بعد أنس، ونذر الشيخوخة بعد فتاء.

البحر أمامها، حقا، ولكن وراءها ما يعين على الصمود، حب الزوج الذي يحوطها برعايته ونصحه حتى بعد رحيله، روح المقاومة التي ترفض الظلم، قوة الحق التي تقف في وجه زوج ابنتها الراغب في الاستيلاء على شقتها قط لن تسمح نجاة - انظر دلالة الاسم - بأن تعود طريدة شريدة تقضي ليلها في حديقة المنشية بعد أن أنشبت فيها ابنتها - كبنات الملك لير أو بنات الأب جوريو - أنياب العقوق، هكذا يرسي محمد جبريل - بلغة الفن - قيمة إنسانية كبرى تربط بين الذكرى والحاضر في وعي بطلته، وتعلي من معاني العدل والتراحم والوفاء ولو كان ذلك بإبراز غيابها عن عالم قاس لا يرحم.

د. ماهر شفيق فريد

٥ أكتوبر ٢٠٠٩





رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد